جمال الجزيري

المدير العام : **د . أسرار الجراح**
مدير النشر : **السمّاح عبد الله**
جمهورية مصر العربية – الجيزة – العجوزة – **54** شارع شاهين
الطابق الأرضي – شقة **7**
تليفون : **33477903 – 0117652396**
Email : altalaqi22@yahoo.com

اسم العمل : نقوش على صفحة النهر
المؤلف : جمال الجزيري
النوع : قصص
الطبعة : الأولى
تاريخ النشر : القاهرة ، أغسطس **2009**
تصميم الغلاف والإخراج الفني : سين عين
عدد الصفحات **120** صفحة
الناشر : دار التلاقي
عدد النسخ : **1000** نسخة
مقاس الكتاب :متوسط ( **20 x 14** )
رقم الإيداع :

# نقوش على صفحة النهر

**قصص**

جمال الجزيري

الطبعة الأولى

# إهداء

إلى أبي ونهري ومعلمي، ذلك النيل العجوز

إليّ وإليها

إلى رانيا ومريم ووصال ويحيى.

# الباب الأول :

# صفحة النهر

# ود

إحساس جميل أن تدخل الجامعة لأول مرة طالبا ولست زائرا كعادتك. تتأمل الأشجار القليلة بنظرة حانية. تتنسم الهواء المحمل بروائح طه حسين وآثاره ومائه وهوائه. فقط عليك أن تدع نفسك تنداح وسط الأشجار والمباني والممرات، وستجد نفسك في مواجهة لذيذة مع التاريخ والبنـــاء. ستنظر حولك وسترى أفاقا تتفتح وأبراجا تُشيَّد، فتتراءى لنفسك صاعدا إلى قمة المجد الأدبي والثقافي والأكاديمي......

لن تجد حشو المدارس ولا تأقلم العقول الصماء على كتب بعينها. لـــن يضربك مدرس ما لأنك لا تشترك في المجموعات المدرسية أو "تتعـــاطى" عنده درسا خصوصيا تمقته، لن يكدر عليك صفوك في كل حصة ولـــن يطرح عليك أسئلة ما أنزل أحد بها من سلطان، ولن تراه يغتاظ عنـــدما تعمل عقلك في كل ما قرأته واطَّلَعت عليه وتخرج له بإجابة شافية ــ لك أنت وحدك بالطبع ــ ولن تجده ينظر إليك نظرات غل و يمنحك صفرا طويلا عريضا في درجات الاختبار أو أعمال السنة. ساعتها لن تـــذهب إليه بورقة الاختبار وتقول له إن معظم الأسئلة لم يتم تصحيحها ولـــن تقف متحيرا أمام جوابه اللئيم: "أنت الذي كتبت هذه الإجابات بعـــد التصحيح". لذلك استرح ثم افتح عقلك على كل الأبـــواب والثقافات وقف تبجيـــلا لأساتذة الجامعة الأجلاء....

بفرحة طفل صغير ستتقافز في الجامعة. وبإحساس بكر بمكان غير موطوء من قبل ستنهل من الجدران والأشجار وأرفف المكتبات، وستدرس كـــل

شبر من أرض الجامعة الصغيرة. وكبنت بكر ليلة الزفاف، ستحس بـــأن النعيم قادم وبلذة التزاوج مع أدب لغة عريقة وحضارة شعب آخر. ومع أنك تكره الاستعمار، فأن فكرته لن ترد على ذهنك وأنت مقدم للغوص في بحور ذلك الأدب الأجنبي والإمساك بلآلئه الفنية التي لابد أن تقودك إلى فكر شعب بأكمله، فأقدح ذهنك وافرد أجنحة إحـــساسك علـــى الأعمال الأدبية العظيم منها والتافه...

عندما تدخل هذا المكان الجديد، ستنبت حوله شِبَاكُ الوحدة وستحاول أن تتملص منها فتصل أشخاصا لا تعرفهم وتبدأ أحاديث مع أنـــاس لم تكن تراهم. ستترك لاجتماعيتك العنان فينجلـــي عنـــك قـــدر مـــن إحساسك بالوحدة.

عندما تجد نفسك وحيدا في حديقة غنّاء وضجيج الأشخاص حولك يمرح وسط الخضرة الجامعية، لا شك ستشعر بالإحباط وستبحث في كل مكان عن وجوه كنت تعرفها. ستتنسم روائح الأصدقاء القدامى وتجوب كـــل الكليات بحثا عنهم وعن أيامهم المفقودة. .. ستتطاير الـــدماء في قلبـــك وترقص دقاته عندما تعثر على صديق: ستأخذه وتتـــسكعان ســـويا في ردهات الجامعة قبل أن تبدأ المحاضرات. وعندما يدرك أحدكما أن وقت محاضرته قد آن، ستتواعدان على اللقاء بعد المحاضرات في إحدى المقاهي القريبة خلف سور الجامعة. ساعتها ستحمل ودا جديدا لهذا الـــصديق و تضعه في عينيك.

ستجد "جماعات" تقذف فعلاتها في همٍ. لذلك سيحرّمون عليك كـــل شيء حتى المرور بجانب أي بنت. عندئذ (يا ويلك يا سواد ليلـــك) إن

وقفت مع أية زميلة لك. فستجدهم يقذفون بأنفسهم عليك مثل بغـــل يقذف ببوله في عرض الشارع على المارة. سيسحبك أحدهم من يـــدك جانبا ويقول لك: "لو سمحت يا أخ". إن كان "طويل البال"، ستمشي معه مستأذنا من زميلتك ومعتذرا لها. وسيبدأ في إلقاء خطبـــة عـــصماء عليك وكأنك بائس لا حول له ولا فهم، فاتحا كلامه بعبارة ستـــسمعها كثيرا: "مش حرام يا أخ تقف مع واحدة أجنبية". وإن حاولت الرد عليه، سيقول لك إنها أجنبية، كما لو كانت ليست من قريتك أو من بنـــات بلدتك أو من زميلاتك وكما لو كانت العلاقة بين الولد والبنت تنحصر في إطار جنس لم تكن تعرف معناه أصلا. وإن بدت في عينيك علامات استياء، سيشير بإشارة من يده. وفي لمح البصر، سترى حولـــك ذقونـــا كثيرة شعثاء محاولين أن يهدوك إلى صراطهم المستقيم ويجنبونك غوايات شيطان ما. ساعتها ستتذكر نصيحة والدك: "لا تمش مع المـــدقنين، ولا تصاحب أحدا منهم. لو سمعتُ شيئا مثل هذا، أنت حر و"ذنبك علـــى جنبك"". وستدرك حكمة والدك. وفي الحال ستلقي عليهم السلام وتمشي بعيدا.......وبالطبع لن يردّوا عليك أي سلام.....

ستقف لبضع دقائق جامدا في مكانك، تتفاعل داخلك شتى الأحاســيس ولا تعرف ماذا تفعل. ستستعيذ بالله العلي الرحيم من كل شيطان رجيم و كل من يقتل فيك النقاء والإحساس بالحياة. ستردد بعض آيات مـــن القرآن الحنون إلى أن تهدأ تماما وتستعيد الإحساس بالحياة التي وهبها الله للقلوب العامرة... ستنظر في جدول المحاضرات، فتدرك أن موعد محاضرة قد اقترب .. . ستصعد درجات مبنى الفصول إلى أن تجد ملامح تتعرف

عليها فتدخل الفصل، تضع أجندتك أمامك وتجلس انتظارا.. ..
ستتوافد الوجوه التي بدأت تألفها وسترى ثلاثة أشخاص بذقون ينبت فيها الشعر هنا وهناك بلا انتظام أو "معمار فني". وعند طرف الذقن ستبصر شعيرات طويلة مثل ذقن الجدي الذي بدأ يكبر و يتحرّش بالمعزة في الزريبة في ركن بيتك. سيقف شخص منهم استعدادا للكلام والآخران أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله. ستنظر إليهم بتمعن، ثم تلتفت حولك فتجد رابعهم واقفا أمام الباب ينظر بقلق: تتلفت عيناه يمينا و شمالا، وراء وخلفا، كمن يتوقع قدوم شخص ما أو كمن يخاف حدوث أي شيء للذقون بالداخل. ستراه حارسا ملتزما في "خدمته" لسيده. يتباطأ تنقيب عينيه تدريجيا إلى أن يطمئن تماما ويدخل الفصل، يقول في تجهم كأنك قتلت أباه: "السلام على من اتبع الهدى". ويبدأ في توزيع بعض الأوراق عليكم ثم يبدأ سيده في الكلام. يدبج مقدمة تراثية البلاغة، ثم يعرج إلى "حدوده" للعلاقة بين الرجل والمرأة و يتحول إلى رؤيته لفساد نظام الحكم، ثم ينتقل إلى التحذير من مخاطر دراسة الأدب و يقول كلاما كثيرا عن مفاسد وغوايات الأدب الأجنبي. فلا تشعر إلا وأنت تمزق الأوراق التي وزعوها على كل منكم - بعد أن تقرأها بالطبع - وتخرج.. .. ..
ستضع أجندتك على السور الواصل بين الفصول وتتنهد. يقترب منك أحد زملائك الذي خرج لتوه من الفصل. تكسو وجهه علامات استغراب واستفسار. يستأذنك في النظر إلى أجندتك. ستمعن النظر فيه، فترى قلقا ما يحتوي ملامحه المتأملة ونظرة مستفسرة ترتسم على وجهه. سيمنعك حياؤك من عدم السماح له برؤية أجندتك. كما أن ملامحه

تشدك إليه وتربط بينكما خيوط مودة قد تتكون يوما مـــا. ســـينظر إلى اسمك، فيتلاشى بعض من قلقه ويبتسم لك ابتسامة تحمل قدرا من الـــود والحميمية. ساعتها ستنظر إليه طويلا وتحاول أن تجس نبض القلق المتواري خلف ملامحه المتأملة: ستجد عينين شاردتين وســـط خـــضرة الـــشجرة القريبة. فتسأله عن اسمه. سيقول لك إيهاب عباس، ثم ينصرف عنك وهو يودعك بكلمات ستتذكرها جيدا: "يبدو أننا سنصير أصدقاء".

ستنفتح بعض أساريرك سيدي، عندما يدير عقلك فكرة أن يكون لـــك صديق من نفس القسم، خاصة وأن الدراسة بـــدأت بالفعـــل وبعـــض زملائك في الكليات الأخرى بدءوا في المذاكرة وعدم التـــسكع علـــى المقاهي التي تعشقها وتكن لها ودا صادقا. ستحاول أن تربط مـــا بـــين ملامح ايهاب القلقة وطريقتك في تفسير ملامح الشخصيات التي تعايشها في الروايات والقصص أو تجالسها من البشر الطيبين، وستتوصل إلى فكرة مبهمة بأن إيهاب ذو علاقة ما بالأدب وإن لم تتيقن من نوع هذه العلاقة: هل هي كتابة وممارسة أم مجرد قراءة و تذوق؟

ستعود إلى قاعة المحاضرات و ستجد ذوي الذقون الـــشعثاء يلملمـــون بقاياهم في حسرة من العيون البلهاء التي تنظر لهم من المدرجات مستغربة لكم التحريمات واللاءات التي أمطروهم بها. وسينظرون إليك قبـــل أن ينصرفوا نظرة مشحونة، ثم يهمس أحدهم في أذنك: "ربنـــا يهـــديك". ستتأملهم: فتجد حارسهم يحمل حقيبة كبيرهم ويسير في خضوع خلفه كأنه كلب يزود عن سيده مخاطر الطريق. ستتبعهم بعيونك (التي سيأكلها الدود) ولن ترى منهم إلا سيقانهم المتطايرة وذقونهم الشعثاء. وســـتلمح

بطرف عينيك عيون الكلب تأكل إحدى البنات ذوات الأرداف الملتفـــة الممتلئة في نهم شديد. ساعتها ستضع أجندتك على المدرج وتجلس تخـــط بعض السطور في قصة قد تكتمل يوما ما .. ..

ستنظر حولك، فتجد إيهاب جالسا في نهاية المدرج يقرأ بنهم، ويبدو أن لون وجهه يتغير بتغير ما يقرأه، فتدرك أنه مندمج في قراءة شيء جميـــل وثري يتفاعل مع النفس ويولد المشاعر الكامنة في أعماق الروح. لـــن تذهب إليه على الفور: تقول لنفسك دعه يكمل ما يقرأه فربما لا يريـــد أحدا أن يقطع عليه خلوته.... لكن عينك لا تفارقه، فكيـــف تفـــارق شخصا يجد لذة في القراءة؟!!!!.... تنسج أفكارك خيوط صداقة قادمة، وترى نفسك معا تداعبان مياه النيل وأنتما تترنمان بقصيدة لأمل دنقل أو نجيب سرور أو نصار عبد الله.. ..

ستراه يطوي الكتاب ويرفع رأسه. عندما يجدك تنظر إليه، يبتسم لك في ود وصفاء كأنه يعرفك منذ سنين. سترتاح لهذا الود وتقف ذاهبا إليه بود مماثل، بل أكبر قليلا، فيرحب بك ويفسح لك مكانـــا.. .. تحـــاول أن تعرف ما يقرأه، ولن يتطلب ذلك عناء كبيرا. فعلى الفور سيقول لـــك: "جميل جدا شعر نصار عبد الله". ستفرح كثيرا عند سماعك هذا الكلام. فإحساس جميل يراودك عندما تعرف أن شخصا ما يـــشاركك حبـــك لشاعر عميق. ربما تترنمان بقصيدة لنصار، وربما ينشد كل منكما رباعية من رباعيات صلاح جاهين، وربما تتطرقان إلى رواية لصنع الله إبراهيم.. .. وأيا كان ما تفعلانه، فإنك ستحمل محبة خاصة لإيهاب وستشيد لـــه طريق الصداقة يمشي فيه إلى آخره...

# الطول واللون والحرية

ستحاول أن تزرع بذور ألفة مع قاعة المحاضرات أو ما يسمونه الفصل لصغر حجمه. ستنظر حولك فتجد أن كل المشاركين حقيقة في المحاضرات، أي كل المتكلمين و الظاهرين، من البنات. في لمح البصر، تتوارد إلى ذهنك صورة الفاتنة المهلكة في قصيدة جون كيتس، وستسحب خيط أفكارك إلى أن تصل إلى النصيحة المتكررة لأمك الغالية: "حرّص من البنات، اوع أي بنت تضحك عليك". وفي الحال ستدرك مكامن الخطر في موقعك، خاصة وأنك بدأت تبرز في المحاضرات وتسحب الضوء من على بعض البنات. أول ما ستفكر فيه هو أن تذهب إلى عم علي بائع الجرائد في كشك الصحافة و تشتري كل الكتب التي تتناول المرأة .. .. .. وستحاول في أقصر وقت ممكن أن تلم بتفاصيل حياة المرأة، خاصة وأنك قروي طيب لا تعرف الأمور الخبيثة التي توقعك أو توقع بها غيرك في الشراك.. .. ..

ستستريح بالا أيها القروي البكر الأعذر. ستمنحك قراءاتك معرفة وثيقة بالأنثى، فلن تكون في حاجة إلى معرفة جسدها أو معاينته على الطبيعة. يكفيك وصف شهرزاد للنساء في ألف ليلة وليلة، بالرغم من أن شهرزاد أنثى والأنثى كما يقولون تغار من الأنثى وتحاول أن تحقّر من جمالها. فإن كان وصف شهرزاد بالغ الروعة، فما بالك بالواقع!. لكن يكفيك هذا. ستعرف كيف تفكر البنت أو المرأة، لذلك ستكون سريع البديهة عند تفسير أي كلمة أو إشارة أو عبارة تبدر من أي بنت، وستحتاط لنفسك. لن تلهيك أية حيلة لأي بنت عن متابعة مذاكرتك أو خربشاتك في

القصة القصيرة. ستدرك كيف تتعامل مع البنات كرجل بكر لم يجـــرب، ولا يريد أن يجرب ــ على الأقل الآن فقط ــ شطط الالتحام مع جسم الأنثى العبقري الذي يحمل دائما بصمات الإله وعظمتـــه. اهنـــأ بـــالا سيدي، ولا تلتفت إلى التعليقات التي تبزغ هنا وهناك بأنك متكـــبر أو متغطرس أو أنك لا تقدّر الجمال، وأكمل ما أنت شارع فيه: فلا ظروفك ولا طموحاتك ولا إمكاناتك تسمح لك بإقامة أية علاقة مع أية أنثـــى، شرعية كانت أم غير شرعية. .. ..و بالطبع سيزداد سرورك عندما تدرك أن زميلاتك بدأن يدركن هذه الصفة فيك ويحترمنها.

ستدرك إحدى زميلاتك أنك لا تعير جمالها العبقري أدنى اهتمام ظاهر إلا في حدود مجرد الزمالة. فأنت تعرف قدراتك المادية ودخل الأسرة القروية الكبيرة، فالأرض ما عادت تخرج الكثير هذه الأيام. ستحاول أن تتقصى سبب عزوفك عنها، خاصة وأن كل طلاب الجامعة يتهافتون عليها، بل وجزء كبير من الأساتذة. ومن خلال بعض الاستفسارات غير الصريحة، ستعرف أنك قروي "ملتزم" في تعاملك مع البنات ومحـــافظ. ســـاعتها ستلمح مدى الدهشة في عيونها السوداء الجميلة وهي تعقد مقارنـــات لا تنتهي بين سلوكك المحافظ وأفكارك الثورية. ستجد دهـــشة متواصـــلة وحيرة قلقة لا تعرف كيف تتعامل مع ذلك الكائن القروي الغريب الذي هو أنت. عندئذ ستمنعك أعرافك المجيدة عن ممارسة عادتك الجميلة على تخفيف ألم أي شخص. فلن تربت على كتفها لتهدئي من حيرتها، ولـــن تضع يدك أسفل ذقنها وترفع وجهها وتقول لها: "لا تتعجبي، أنا هكذا". وسترفع عينيك إلى الفضاء الرحب و تدعو الله ألاّ يوقعك في شر أعمال أي شخص عرفته وألاّ يجعل تعاطفك مع حيرتها ينقلب إلى ميل خفي.

ستراها تحاول أن تثير اهتمامك وستسمعها مرارا وتكرارا تقول لك بألف لسان: "أنني غير متحجبة لا يعني أنني لا أصلي ولا أصوم". وستنهال على أذنك كل التفاصيل الدقيقة الخاصة بالصلوات: الفروض والسنن والاستخارة وغيرها. ستسمع منها القنوت وأدعية كثيرة كأنها تتلو عليك من كتب الأدعية والأذكار. سترى فرحة مفاجئة في عينيها عندما تقول لها:"يا سيدتي هذه حرية شخصية وكل إنسان مسئول عن تصرفاته قدام ربنا وقدام الناس، وأولا وأخيرا هذه شكلية دينية" ستحس بمدى سعادتها وهي تسمعك تتكلم عن حرية البنات، وأن مسألة الحجاب مسألة شكل. لكن ذاكرتها لا تسعفها بربط الخيوط. فهي بالقطع تعرف عشقك المتقد للشكلية الروسية، وتسمع مناقشاتك الكثيرة حول المفهوم الخاطئ للشكلية ومحاولة الماركسيين تشويهها وأن الشكل والمضمون لا ينفصلان، فالمضمون يتجلى في الشكل و منه. لكنها تأخذ كلامك على أن مسألة الحجاب مسألة شكلانية لا تدل على شيء. فتسخر داخلك من تلك العقلية التي لا تعرف العمق ولم تجرب الغوص في بحور الكلمات لتستنطقها وتضع يدها على ما هو كامن فيها وما هو مستتر.

ستسمعها تقول لك إنها تصوم الاثنين والخميس، وستجدها ترفض بلباقة حبة لب أو بونبون، أو تأخذها وتضعها في حقيبة يدها، متعللة بأنها صائمة الأيام الستة البيض. وبلباقتك المعهودة، ستمتدح سلوكها. فتبتسم تلك الابتسامة الصافية الرقراقة التي يمكنك أن تستنتج منها داخلا صافيا بريئا . ثم تنصرف عنك راضية عن نفسها وهي تنظر للوراء أحيانا لتعرف اتجاه نظراتك.

عندما تراها واقفة مع أي ولد، ستأتي إليك وتعتذر لك بأنها تريد أن تستعير كتابا منه أو أنه أخو صديقة لها وتسأله عنها. فتقول لها إن هذه مسألة شخصية تخصها وحدها وإنك ليس لك الحق في محاسبتها. لكنها ستعود وتكرر لك أنها لا تحب الوقوف مع الأولاد وأنها محافظة وأن أهلها عودوها أن تكون ملتزمة. ستمتدح الالتزام وتقول لها إن على المرء أن يكون منفتحا على الحياة ولكن في إطار الدين والسماحة والأعراف. وسترى فرحة في عينيها لا توصف، تزيدها جمالا فوق جمالها وهي تسمع منك هذا الكلام، وتديم النظر إليك وأنت واقف غير متأثر كأن الأمر لا يعنيك حيث أنك تخاف إن ابتسمت لها أن تأخذ ابتسامتك على محمل آخر. لكنك عندما تلتقي عيناك بعينيها ستشعر بارتباك ويتوارد الدم من كل أنحاء جسمك إلى وجهك. ساعتها لن تتحمل قدماك جسدك. فتستأذن منصرفا. ستفقد قدماك إيقاعهما المعهود وهي ترمقك بنظرات ستحتار في تفسير السر الكامن فيهما.

سيصاحبك الشعور بالارتباك طوال اليوم حتى بعد أن تنتهي المحاضرات وتذهب إلى الشقة التي تسكن فيها – مؤقتا بالطبع. ستجد مادة جديدة قد تسللت إلى جسدك. تتطاير فرحا أحيانا فتدلف في المسجل شريطا لأنغام أو حنان ماضي أو محمد منير أو فيروز. وربما وضعت شريطا لعبد الحليم حافظ الذي توقفت عن سماعه منذ زمن. وربما يبلغ بك الشطط مداه فتمسك بديوان شعر لشاعر ما كنت تتوقع أن يأتي عليك يوم وتقرأه. وربما تشعر بالغربة والوحدة وتبحث عن أي شخص تتكلم معه فلا تجده و تجلس شغوفا تقرأ القرآن أو تصلي ركعتين لله. في النهاية

ستجد نفسك تمسك قلمك الذي لا يفارقك وتبدأ في الكتابة، فتستغرب كثيرا من أنك بدأت في كتابة قصيدة وليست قصة كعادتك في معظم الأحوال. ولأول مرة في حياتك تجد أن القلم لا يطاوعك أحيانا، فالقصيدة لا تريد أن تكتمل. حتى السطور التي كتبتها لا ترضى عنها، فلا إيقاعها منسجم ولا وزنها يساوي شيئا عند حيتان الذهب. فتمزق الورقة، وتستعيذ بالله من كل الشياطين، ثم تتوضأ وتحاول أن تنام وأنت تسترجع بعض آيات من سورة يوسف عن امرأة العزيز.

ستنهض في الصباح فزعا على صوت المنبه الذي لا ينقطع . تشعر برغبة في معاودة النوم وأن عظامك قد كسّرها ساطور لا يرحم أثناء نومك. لكنك ستنهض. تصلي وتذرع درجات السلم جريا للحاق بالمحاضرة. فبالرغم من أنك لا تستفيد من المحضرات ولا تجد فيها نقاشا أو حوارا – فنقاشك مع زملائك وزميلاتك خارج جدران الفصول أو القاعات – فأنك ستمد خطاك في الشارع لأن الدكاترة يعرفونك وبالتالي لا تستطيع التزويغ من محاضراتهم وخطبهم.

ستصل قبل موعد المحاضرة الأولى.لكن الارتباك يتسلقك مرة أخرى، فتدلف تلقائيا إلى المكتبة لتعوّض ما فاتك في الليلة الماضيةفي أقل من ساعة ستتناول طعام إفطارك مما تحتاجه من على أرفف المكتبة وتجلس قلقا، فيراك الأستاذ عبد القادر–موظف الكتبة–ويأتي إليك: صباح الخير،ليست عادتك أن تأتي إلى المكتبة باكرا، أتريد شيئا؟". "لا أبدا، ألف شكر يا أستاذنا". سينصرف عنك ونظرة استغراب تتأرجح في عينيه. ستحاول أن تداري قلقك، فتنهض إلى أرفف اللغة الإنجليزية تبحث عن أي ديوان

شعر لشاعر حديث. لكنك تفزع عندما تكتشف أن الأرفف توقفت عن النمو عند ت. س. إليوت، وكأن أرضه الخراب أقسمت ألا ينبت على أرفف المكتبة أي شعر بعده. لكنك لا تحب إليوت و لا تؤمن بنظرية نهاية العالم أو بالأشعار المفتتة التي تشي بأشكال ومضامين لا تناسبك ولا تنبت في طمي النيل المنساب في دمائك أو في التربة العربية التي تنهل من عبقها الجميل. فتمر بعينيك على أرفف المكتبة إلى أن تصل إلى المكان الأليف لألف ليلة و ليلة. فتحتضن المجلد الأول كعادتك و تعيد قراءة الصفحات الأولى لتتيقن من أن السرد يجدد الحياة وينسف موتا محيقا، فتنداح إلى مخيلتك آلاف الخيوط لآلاف القصص والحكايات. تترك نفسك للخيوط تجذبك إلى حيث شاءت، تجد لذة عارمة في الجذب، وبحرية كاملة تترك نفسك أسيرا لتموجات الخيوط إلى أن تتمكن من أحدها فتجذبه ويبدأ قلمك في التراقص.... إلى أن تضع نقطة في آخر القصة وتترك نهايتها مفتوحة، ثم تتنهد تنهيدة تقلق جزءا صغيرا من هدوء المكتبة النائم الذي لا يزعجه ضجيج أي زائر في هذا الصباح المتثائب.

ستلملم أوراقك المبعثرة وتهم أن تنهض. لكنك سترى نانا التي ربما ستستدعي اسمها من ألبوم محمد منير "الطول واللون والحرية" قادمة نحوك بعد انتهاء المحاضرة. فتبصر كل شيء حولك عيونا ترمقك بخبث، فتهتز، وقبل أن تقع أشياؤك الصغيرة من يدك تجلس كي لا تبصر العيون شيئا. ستسير نحوك، تسحب الكرسي المواجه لك وتجلس. ستلقي عليك السلام بالطبع ولا تلقي بتحية الصباح أو أي تحية إنجليزية أو فرنسية كعادتها مع زميلاتها. ستهم أن تتكلم . لكنك ستلفت انتباهها بلباقة إلى أن المكتبة

ليست للكلام. فتقترح عليك أن تخرجا. ولكي تهرب من نظرات الأستاذ عبد القادر التي ترمقك منذ ما دخلت، توافق بالطبع تداركا للموقف. ستخرج وأنت تتلفت حولك لتسبر غور العيون المتفحصة.

ستقف بالطبع أمام المكتبة مباشرة. لكنها ستقول لك إنها لا تحب أن يراها أحد مع أي ولد. فتنظر إليها بغباء أو استفهام. لكنها ستبتسم لك بعينيها الصافيتين وهي تجدك تتفحصها محاولا معرفة السبب. ساعتها لن تستطيع أن تقاوم هذه الابتسامة التي لو رسمها فنان في لوحة ما لفاقت الموناليزا وأبدعت لوحة شرقية خالصة فائقة الروعة. ستسيران كأن كلاكما لا يعرف الآخر إلى أن تصلا إلى نقطة هادئة خلف مبنى الفصول. عندئذ ستبتسم لك، وسترد لها الابتسامة بأحسن منها و تجلسان...

ستنتظرها أن تتكلم، لكنها لسبب ما -لن تستطيع أن تضع يدك على أي طرف منه – تجدها تفرد الصمت أشرعة تتبختر في موجة الهواء الخفيفة التي تنساب إليكما بروائح الزهور من الأشجار القريبة. تزرع ابتسامتها براعم صغيرة في كل رقعة حولك. فتشرع البراعم في النمو سريعا إلى أن تسكر أغصانُها صدرك المملوء بعشق النهر. وستجد نفسك حائرا لا تستطيع أن تفسر هذه الابتسامة التي تبذر حولك بذورها في انتظار أن تلتقط أية بذرة. فتنساب في عقلك كل الاحتمالات وتحاول أن تجد مبررا لهذا الصمت. لكنك في النهاية ستركن إلى احتمال وحيد: ألا يمكن أنها تريدك أنت أن تبدأ الكلام؟!!! لكنك لست في حاجة إلى الكلام، كما أنك ليس لديك كلام خاص تقوله. عندئذ ستنظر في ساعتك فجأة وتستأذن متعللا بأنك نسيت موعدا مهما.

# مقهى الأدباء

تنتهي المحاضرة، فنتسابق على الخروج من تلك القاعة المظلمة، نرى الشمس تداعب الأشجار من وراء الغيوم الخفية، فنبتسم لهذا الغزل العذري. يعلق نجاح عبد النور "كانت محاضرة مملة"، فارد علية "أيحسبنا ذلك الدكتور أحجارا صماء فيظل يكتب علي السبورة أربع ساعات متواصلة دون أن يمل أو نفقه شيًا مما يكتب؟" يبدو أننا أخرجنا ما هو مشحون داخلنا، فنبدأ في النظر بشغف إلى الشمس الحنون وهي تدلّك أغصان الأشجار كأنها تريد أن تبعد عنها لسعة البرد أو تجعلها تتراقص في انتظار انقشاع السحب، وكأن هذا التراقص طقسا شعائريا جميلا يجلب الدفيء للقلوب العفية التي لم تستطع الساعات أن تفقدها دفئها بالحياة والفن النابت في التربة الطرية ... نلوح للشمس ونلقي السلام على الأشجار فترد علينا بابتسامة ساحرة في عيون الأوراق الندية ...

نسير خارجين. نتمنى لو كان إيهاب عباس معنا الآن . لكنه لا يحب هذه المحاضرة ولا يعرف الدكتور وبذلك لا يحضرها أبدا. نمر علي عم سيد بائع الجرائد بالجامعة. يجلس تحت شجرته متكئا علي جذعها ويتدثر بجلبابه الصوفي ويلف حول رأسه الشال المعتاد. ولا يكاد يتبين وجوهنا لضعف نظره. يضع أمامه صفا من الجرائد وصفا من الكتب. نلقي السلام عليه ونجلس نقلب الكتب، إذ أننا لم نجد في الجرائد العون وصفحاتها كلام جرائد كما يقولون. نجد "المذاهب النقدية" لشكري عياد و"خالتي صفيه و الدير" لبهاء طاهر. فنشتري نسختين ونضع ثمن النسخ الأربع في

يد عم سيد فيرفع النقود أمام عينيه ويفحصها هو يقول لنا مبتسما "لا مؤاخذة يا بني، أولاد الحرام لم يتركوا لأولاد الحلال شيئا"، نبتسم لمداعبته الطريفة ونربت علي كتفه "سلام يا عم سيد"، فيدعوا لنا بالنجاح ونور الطريق...

نقترح أن نمر علي سراج وصفي في قسم الصحافة. نجده واقفا مع إيناس السيد، فلا نشأ أن نقطع عليهما حديثهما. نقف بعيدا علي المقعد الرخامي أسفل المبني المقابل. يهمهم نجاح بكلمات لا اسمعها. يتجه إليّ، ثم يبدأ الكلام بصوت هامس صادق كأنه يتكلم إلى نفسه: "عندما قلت لي أنك تكتب القصص لم أصدق. قلت ربما تدّعي الكتابة لكي تجلب إليك الأنظار، أو لكي تستولي على اهتمامي – لأني غريب، ولا أعرف أحدا هنا حيث أنني حولت إلى الكلية منذ فترة قصيرة – لكنني عندما قرأت قصصك أدركت سوء ظني. فسامحني إن كنت أخطأت التفكير فيك". أربت على يديه بجواري: "سيدي تكفيني نبرة الصدق في كلامك، و ليس بين الأحباء حساب أو عتاب. كما أنني مازلت طفلا حائرا". أحتضن كتابيّ شكري عياد و بهاء طاهر، ثم أشير إليهما في يد نجاح وأقول: "مازال الطريق طويلا، كلما قرأت لأساتذتنا، أشعر بأننا سنظل نحبو لفترة طويلة حتى نتعلم المشي"......

يتحسس نجاح بطنه، فيصحو داخلي الإحساس بأنني لم أفطر بعد. ننظر إلى سراج، نجده مازال واقفا علي السلم مع إيناس. أكح بشدة، فينتبه سراج، أشير له بأننا ذاهبان إلي المقهى، وهو يعرف أننا نلتقي علي مقهى علاء ويكفيني فقط أن أكور أصابع يدي وأضع إصبع الإبهام علي فمي فيفهم أننا ننوي أن ندخن الشيشة وبالتالي نجلس علي مقهانا الأليف.

أقف أمام المطعم الصغير. أمد للعامل جنيها: "سندوتشين فول واثنين طعميه". عندما يكون قد جهز السندوتشات، يكون نجاح قد اشترى المعسل. نشير لعلاء من بعيد. نسحب كرسيين، ونجلس في أحد الأركان أمام المقهى حتى يتسنى لنا متابعة حركة الناس وهم يجيئون ويذهبون في الشارع أمامنا. فمن عاداتنا أن نراقب ملامح البشر ونختزنها في قلوبنا وعقولنا علّها في يوم تتفاعل وتخرج منها شخصيات ثرية تملأ قصة من القصص.

يجيء علاء بأكواب الماء: "صباح الخير يا شباب، كيف حال الأدب معكم؟" "صباح النور، تمام، يسلم عليك ويريد أن يراك". فنضحك جميعا. ودون أن نطلب شيئا، يذهب ويأتي بكوبين شاي كشري مضبوط، فدائما يتذكر ما نحن معتادون أن نشربه. يضع الصينية بخفة وحذر مخافة أن تقع بعض النقاط على الكتب أو مجموعة الأوراق الموضوعة في أجندة كلا منا. ودون أن نكلمه إلا بابتسامة في وجهه البشوش، يأخذ باكو المعسل من على المنضدة الصغيرة أمامنا ويحضر لنا شيشتين سالكتي القلب صافيتي الزجاج بعد أن يبدل ماءهما.

يضع نجاح المبسم في فمه ويسحب الدخان بنهم. تشرد عيناه بعيدا. تبدر ابتسامة خفيفة تلقائية على وجهه الصامت. ثم يتكلم بحميمية كأنه يتحدث عن شيء أليف يحس به: "مجروح القلب، متثاقل الهم، لا يستطيع أن يجمع ملامحه التي بدأ يفقدها في لحظات.... الله ، الله". فأنظر إليه كطفل تائه عثر على أمه أو كممثل على خشبة المسرح ينظر للجمهور بطرف عينيه ليرى مدى أثر أداءه عليهم أو كفلاح يقف على

الدرّاسة يلقمها حزم القمح وينظر بجانبها ليرى الغلال الخارجة منها ليعرف نتيجة عرقه و"شقاءه": "يا سيدي ، أنني أغير على قصتي (تشكّل) من هذا الغزل الصريح. تغزلك فيها يشعرني بالحرج، فلم أفعل شيئا يستحق كل هذا الثناء الصادق".......

فينظر إليّ نجاح بخبث، رافعا حاجبيه لأعلى، زاما شفتيه، ويتكلم بنبرة جادة متكبرة كأنه يراني حشرة حقيرة أمام عينيه، مقلدا المسيطرين على قصر الثقافة: "أنت يا ابني لسة قدامك كتير عشان تعرف تكتب. لازم تضبط الإيحاء وتخلي التون واضح. وتستخدم الراوي العليم عشان تعرف تتحرك. و فوق كدة وكدة تخلي العمود الانسجامي منبسط في النص. وأوع تمشي مع مصطفى فتحي ولا تصاحب حد من أدباء العاصمة اللي بيحتقرونا". فأتمادى في الضحك إلى أن يقع مبسم الشيشة من يدي، فأتمتم: "اللهم اجعله خيرا".....

يستعيد نجاح ملامحه البسيطة بعد أن يتخلص من تلك الملامح: فيبدأ في الضحك خابطا كفه بكفي كأننا طفلين عثرا على لعبة تستهويهما. أقول له: "أنت لازم تقرأ كل أعمال القاص الفرنسي سيزان[1] والروائي الأسباني فالنتينو[2] والقاص البريطاني المتميز جيرار جنيت[3] وكمان الروائي السوفيتي حلمنتوفيتش[4]" فيرد عليّ : "لازم العقدة تكون متأزمة قوي وتيار الوعي متدفق وصارخ والحداثة تكون واضحة عندك. أنت ما عندكش أي

[1] بول سيزان رسام وليس قاصا.

[2] لا يوجد روائي إسباني بهذا الاسم.

[3] جيرار جينيت ناقد فرنسي وليس قاصا بريطانيا.

[4] لا يوجد روائي روسي بهذا الاسم.

حداثة ولا مودرنية. سيبك من الحواديت البلدي بتاعتك دية وخلي عندك وعي بتشظي الزمن وانقشاع المكان". نضحك و نهتز إلى أن نشعر بأننا أصفياء صفاء النهر وأبرياء براءة النسمة الحانية التي تهفهف على خد أنثى رقيقة. فنبدأ في غناء أغنية عشاق الحياة لمحمد منير: "آه يا عشاق الحياة، جمر الهوى جوه القلوب والع، لو غاب قمر مليون قمر طـــالع، يفـــتح سبيل،في المستحيل، يا فجرنا يا سلسبيل مهما تغيب راجع .. دا بكـــرة جاي بنهار يستاهل المشوار، و حلمنا لو ينضرب حنصد ونرد ولابد يبقى المصير في اليد". ثم نقبض على شيء ما في أيدينا، لا نراه، لكننا نحس به، ربما كان قلما أو قلبا أو كلمة صدق أو إحـــساس طـــازج، لا نعـــرف بالتحديد كنهه، لكننا نحس أنه في أيدينا ويكفينا فقط الإحساس في هذه اللحظة الفريدة.....

نبصر سراجا قادما نحونا. يبدو أنه يدندن بأغنية ما أو قصيدة ما، فرأسه تتماوج يمينا وشمالا كأنها تلحن ما تدندنه... يسحب لنفـــسه كرســـيا. يجلس أمامنا ويضع قدمه على العارضة أسفل المنضدة. يخطـــف مبـــسم الشيشة من يدي ويسحب نفسا: " صباح الصباح والقلوب الملاح واللي جاي أحسن من اللي راح". بعد أن يضع علاء أمامه كـــوب الـــشاي بالحليب، نبادره: "مبسوط جدا يعني!!" فيرد علينا ووجهه مليء بالبـــشر والصفاء: "أنا مبسوط لثلاثة أسباب: أولا، قابلت إيناس. ثانيا، أحمد عبد الحكم[5] ابن الجنية سمعني قصيدة خرافة. ثالثا، الندوة اللي عملناها لماجد

[5] أحمد عبد الحكم شاعر عامية مصري، من مواليد قوص بقنا، ويعمل حاليا بالعلاقات العامة بجامعة جنوب الوادي.

يوسف نجحت فوق ما نتصور. وتوتة توتة خلصت الحدوتة".
عندما يضع كوب الشاي فارغا على المنضدة، يعود ويتكئ على كرسيه وابتسامة تعلو وجهه فتزيده بشاشة ونورا دون أن تبدو علـــى شـــفتيه. فنقول له إن الحواديت لم تنته بعد وها هي حدوتة واضحة وبسيطة. نبدأ في الحكي ويكاد الضحك يغالبنا: "نسخ قصيدة من الأعمال الكاملة لأمل دنقل. ذهب بها إلى أحدهم: ما رأيك أستاذنا في هذه القـــصيدة. لقـــد كتبتها بعد عناء كبير. فرسم تكشيرة على وجهه وجعل نبرة صوته خشنة بها قدر من الحكمة و الوقار: "هذه ليست قصيدة. إنها لعب عيال. الصور فيها منبعجة وكلماتها مكرورة. أين أنت من أمل دنقل؟ ألست جنوبيُـــاُ مثله؟ دع الشمس تسقط على كلماتك حتى تستوي على عودها". فيميل على شاعرنا الهمام ويهمس في أذنه: "هذه القصيدة لأمل دنقل". فينتفض الشاعر كأن فأرا تسلل إلى عبّه فكاد يغطس تحت الكرسي. ثم يغير مـــن ملامح وجهه ويقول مصطنعا المداعبة: "ألم أقل لك إنه لعب عيال؟"... " فنضحك جميعا ونكاد نسقط من على كراسينا......يرفع سراج وجهـــه إلى الشمس التي توشك أن تنصرف إلى سريرها خلف الجبل: ما رأيك يا شمسنا؟ هل سقطت على كلماتهم؟!!" فتختفي خلف غمامة تتجـــول في الأفق وكأنها تعلن رفضها التام أو كأن الكلام أحرجها وجعلها تـــشعر بالضيق...
أشير لعلاء بيدي: أضم أصابع الوسطى والخنصر والبنصر وأجعل الإبهام والسبابة فوق بعضهما تفصلهما مسافة تكفي لوضع كوب الشاي، فيفهم تلقائيا أننا نريد أن نشرب شايا مرة أخرى. ويرفع نجاح باكو المعـــسل

بيده، فيأتي عمر – صبي المقهى – و يبدل حجري المعسل. لا يطلب سراج شيشة، فهو لا يحب أن يشرب لوحده ويكفيه أن يشارك أحدنا....

نرتشف الشاي ونبدأ في مناقشة ما ننوي أن نفعله وكأن الشاي نقلنا من حالة إلى أخرى. العدد الجديد من كتاب (نصوص عشرينية[6]) في نادي أدب الجامعة.. أعددنا معظم الأعمال التي سننشرها. تتبقى أعمال من سبقونا في نادي الأدب الذين تخرجوا السنة الماضية. يتكفل سراج بتجميع هذه الأعمال، فعنده نسخ منها. يقول نجاح إننا لو طبعنا هذا الكتاب قريبا، لحققنا شيئا يعوض ما فقدناه على يد الأساتذة العظام وأصبح سرابا فلم نستطع أن نمسك به. فأرد عليه لا تقلق يا أبا البِشر. سيطبع الكتاب في أقرب وقت ممكن. أما عن الدراسة التي تتناول أعمالنا ويمكن أن ترشدنا فيما بعد، اتصلت بأحد نقاد القاهرة وطلبت منه أن يكتبها.

نسحب دخان الشيشة في شغف وكأننا نكافئ أنفسنا على نجاح وصلنا إليه أو شيء قيم حققناه. فننظر برضا إلى حركة البشر في الشارع أمامنا، أولئك البشر الذين بدءوا يلملمون نشاطهم ويتعجلون الذهاب إلى البيت حتى يأنسوا بالدفء بعيدا عن لسعة البرد التي بدأ عودها يقوى، فتلقي الشمس علينا السلام وتختفي خلف الجبل.

---

[6] ***نصوص عشرينية*** كتيب به بعض النصوص الأدبية لأعضاء نادي الأدب بجامعة جنوب الوادي، فرع سوهاج، نشر في منتصف تسعينات القرن العشرين.

# الصور الحجرية

تعرفنا عليه حديثا، بالضبط منذ ثلاثة عشر يوما. نسمع أنه من أحد الأصوات العالية في نادي أدب قصر الثقافة. فلنطلب منه أن يكتب لنا الدراسة حول نصوصنا في (نصوص عشرينية). فناقد القاهرة مشغول جدا وحتما نرسل له بالقاهرة — كما كنا متفقين — ويكتبها تكون الجامعة قد استردت الميزانية.....

يدلنا عامل مطبعة الجامعة على مكانه. يجلس خلف المكتب في كرسي لا يكاد يبين منه. وعندما يلمحنا، يقف باشا. يمد يده ويسلم علينا والود في يده المسلمة يدهشنا. فحرارة يده تخبرنا أنه يعرفنا منذ سنين وكأننا أصدقاء يجمعنا عشق النهر وحميمية شوارع سوهاج. يقسم بأغلظ الأيمان أن نشرب شيئا. أندهش: فمن المفروض أن يعزم علينا أولا وإن رفضنا يقسم كما يشاء؛ لكنه يقسم أولا وكأنه لا يريد أن يدع لنا فرصة الاختيار، أو كأنه يبدى حفاوة زائدة، أو يحاول أن يغرس شيئا ما في قلوبنا خاصة وأن بعضنا لم يره من قبل. يلعب بشاربه الصغير الذي هندمه الموس جيدا، وهو يقسم. أرى شيئا غريبا يقبع في مؤخرة عينيه، لا أعرف كنهه، لكنه لا يريحني. فقط أحس بأنه عيون فأر في مسرحية عبثية يجلس على مكتب ويلهو بقضم شخص ممدد أمامه على المكتب. أحاول أن أطرد هذا الإحساس من داخلي وأقول لنفسي: يا ابن النهر لا تظن به ظن السوء، فأنت لم تعرفه بعد، فربما كان ابن النهر مثلنا وربما كانت نسمات أبينا تجري في دمه وتهدهد نبتة الأدب في قلبه.....

أنتبه علي صوته يقسم مرة أخرى، أراه يمد علبة سجائره، يقسم أن يأخذ كل منا سيجارة. نقول له إن معظمنا يدخن الشيشة إلا أحمد عبد الحكم وإيهاب عباس أحيانا، لكنه يصر، وعندما يطن صوته في أذني، أبادر بأخذ سيجارة في مبادرة نفهمها جيدا ونفعلها عندما نريد أن نتفادى الصدام مع شخص ما. لا نشعل السجائر بالطبع. يعود ويصوب قسمه نحونا فنشعر بالإحراج. نستسلم للولاعة التي تتصدى للسجائر. يسحب نفسا عميقا طويلا من سيجارته، فترد إلى مخيلتي ملامح صاحبهم في قصتي (مياه النهر). لا أعرف لماذا أبصره نفس الشخص وكأنهما صنعا من نفس شيكارة الأسمنت في مدهم الأسمنتية. لكنني لا أبدي استسلاما لهذه البصيرة بالرغم من أنها تتغلغل داخلي، وأتصرف كما لو أنني ضيف لأول مرة.

أحاول أن أنصت لكلامه، بالرغم من أنني لا أجد في نفسي إحساسا بذلك. أجده يحاول أن يجمع النكات والطرائف من هنا وهناك ليجذبنا. يتكلم كثيرا عن حلمي سالم ووليد منير ورفعت سلاّم. وكأنه جهاز تسجيل من تلك الأجهزة التي تقلب الشريط تلقائيا. يقتبس كلاما من هذا وصورة من ذاك كما لو كان (سرقته السكينة) ويحس بأن الموت على باب الحجرة. يتوقف شريط التسجيل عند كلمات يرددها بلهجة الواثق الخبير ببواطن الأمور: "من منا لم ينكح يده[7]"....يتخيل أن هذه الكلمات تبسطنا وتجعلنا نحترمه ونحبه، هو الكبير عنا في السن، لأنه يتكلم معنا بود الأصدقاء.

---

[7] يقول إن هذا البيت لأحد شعراء السبعينات المذكورين أعلاه، والعهدة على الراوي.

أنظر إلى أصدقائي، أو(الأصفياء) كما في (بدايات قلقة)، أجد نظرات النهر في أعينهم تستنكر شيئا ما. عندما تتلاقى عيوننا، نتفق على شيء ما – ربما الانصراف، ربما الرد عليه، ربما الصبر حتى ينتهي من كلامه ونستأذن (وتوبة نصوح من أن نذهب إليه مرة أخرى)، فمن الأدب ألا نترك شخصا يتكلم معنا وننصرف. فأبونا النهر لامنا ذات مرة عندما تركنا الدكتور الذي يتكلم معنا ويقول إن الشعر انتهى بموت الشعراء الرومانسيين، وعاتبنا: كيف يا أبنائي تتصرفون هكذا ومياهي تسقي الحوار ولا تحجر على رأي وإن كان رأيا متخلفا كهذا؟ كيف بالله عليكم ومياهي في عروقكم؟! لا تفعلوها ثانية، تكفيني الصور الحجرية التي ينحتها أعداؤكم ويدّعون أنها نابتة من طميي. وما هي إلاّ أحجار لا تعرف مياهي".

أقرر ألاّ نسلمه أعمالنا، فلتذهب كلمة نصوص إلى الجحيم، ولتبقى كلمة أعمال لصيقة بنا ومضمخة بالطمي، بل ونابعة منه. ألتفت إلى الأصفياء – بعضهم في (أصفياء) (بدايات قلقة) وبعضهم سيرحل قبلها. نتبادل نظرة ذات مغزى بالنسبة لنا، ولكن الغريب لا يبصر منها شيئا، كي لا نشعره بالحرج، فهو مواطن مثلنا أولا وأخيرا. لكن قبل أن تستقر نظراتنا على ما قررناه، نجده يقول: "قال لي سراج إنكم ترجونني أن أعمّد نصوصكم بدراسة، أين هذه النصوص؟" ننظر إلى سراج: أين هذا الرجاء الذي طلبناه؟ نجده يتململ في الكرسي وعيناه تستنكران هذا القول، ولا نقول تشجبه لأن هذه الكلمة أصبحت ذات مدلول سلبي وممل. يمد يده ويطلب أعمالنا قائلا إنه أخ أكبر لنا ويسعده أن يحتضن الأصوات الشابة،

التي هي أصواتنا. تدهشنا أستاذيته العارية: فلم ينشر له إلا ديوان واحد ولا يتجاوب معه جمهور الجامعة في أية ندوة. لولا انشغال ناقد القـــاهرة ولولا انعزال نصار عبد الله عن الحياة الثقافية بالجامعة بعد خلافاته مـــع أحد أدعياء الثقافة والأدب في الجامعة، ما كنا لجأنا إليه . كما أن باقي أساتذة الجامعة متوقفون: منهم من يتوقف عند القصيدة العمودية، ومنهم عند القصيدة الرومانسية، ومنهم عند محمد عبد الحليم عبد الله. كما أن قصر الثقافة، كما تجده في قصة (مقهى الأدبـــاء)، لا يـــسر عـــدوا أو حبيبا.... يمد لنا يده بإلحاح ولا يدع لنا فرصة للاستدراك أو استـــشارة أبينا النهر. نهم أن نتركه يرجع يده وهي تتأرجح إصبعا للوراء وإصـــبعا للأمام. لكن أبانا علمنا ألاّ نخيب آمال يد ممدودة لنا.

معذرة صديقي إن كنت لا أستطيع أن أصور ملامح شخصيته جيـــدا، فنحن لا نعرفه بالقدر الكافي ولا نستطيع أن نسجل إلا بعض انطباعاتنا عنه. كما أننا استشرنا ذاكرة النهر في ساعة صفاء أمس و لم نجد عنده أي سجل أو ملف لمثل هذه الشخصيات: فأبونا لا يحتفظ بملفات إلا للبسطاء والصادقين والمخلصين الذين يقدمون خدمات صافية لا تقصد إلا وجـــه الله أو مياه النهر أو النبتات التي تنمو في طمي النهر. لكنني سأكتفي هنا بسرد بعض الحوادث التي وقعت في الأسبوع الماضي.

كنا في قصر الثقافة نشاهد إحدى المسرحيات التي تعرض هناك، وكـــان يجلس بجوارنا. بعد انتهاء العرض، بدأنا نتناقش في الأداء — نحن الذين كنا نتناقش. وعندما بدأت الندوة حول المسرحية، وأطلـــت وجـــوه لجنـــة التحكيم، رأيناه يقف ويقول نفس الكلام الذي كنا نقوله فيما بيننا.

كنا في قصر الثقافة أيضا – آخر مرة نذهب هناك إلى نادي الأدب وقررنا ألا نذهب بعدها أبدا. وكنا نناقش بعض آراء ابن النهر شكري عياد، ونحن نفترش باحة القصر. عندما بدأت جلسة نادي الأدب الأسبوعية هناك وقرأ بعض الأدباء الشبان قصصهم، وجدناه يتكلم بادئا كلامه ب(أنا أرى...) ويكرر آراء شكري عياد.

كنا نستضيف شاعر النهر سيد حجاب بالجامعة. وبعد أن أمتع عم سيد الجميع بقصائده النهرية، وجدنا هذه الشخصية تصعد إلى المنصة كما هو متبع في الندوات(بعد أن يلق الضيف قصائده، يصعد شعراء الجنوب ويلقون قصائدهم على هامش الأمسية)، ويتكلم كأنه إنسان آلي، لا تبين في صوته أية نبرات بشرية – أظنه كان يقلد أحدهم. فرأيت عين الضيف العزيز تستنكر، دون أن يتخلى عن بساطته وابتسامته النهرية.

عزيزي ربما تساعدك هذه الحوادث على تشكيل ملامح هذه الشخصية في مخيلتك، نقلناها لك بدون إضفاء أية أحكام عليها سواء أكانت أحكام قيمة أم غيرها. أراك تتساءل لماذا ذهبتم إليه؟ سيدي ربما كان المظهر غير الجوهر. فربما تكون انطباعا شخصيا سلبيا عن شخص ما من أول نظرة كما يقولون. لكنك عندما تحتك به، تجده شخصا بسيطا طيبا به قدر من العفوية والطزاجه – كما علمنا أبونا النهر. نأسف على هذه الاستطرادات. لكنها ضرورية. لا نود أن ننقل لك صورة ناقصة، فربما كونت منها صورة سلبية. وهنا نكون قد تجنينا على الشخصية.

لا نطيل عليك. أخذ أعمالنا، ولا نقول فلذات أكبادنا كي لا نتهم بنبرة بلاغية زائفة لا تحتملها القصة. أخذها وهو يردد كلاما كثيرا عن متابعة

النقد للإبداع وحتمية النقد كي لا يجنح الإبداع وضـــرورة أن يــساعد الأصدقاء بعضهم البعض و...... نخرج من عنده وكأن شيئا ما قد وقف بيننا، أو كأن عكرا ما تسرب إلى المياه الرائقة فكدر عليها صــفوها، أو كأن شرطيا ما وجدنا جالسين في حضن النهر فسحبنا من قفانا وأدخلنا في حجرة مظلمة لا تسعنا، أو كأن سبورة عمياء مثل تلك التي تجدها في قصة (عمى) أغرقتنا في كلماتها النحاسية، أو كأن يد تلك السيدة النارية في فتفوتة (تملص) تخنقنا وتحاول أن تفرغ طزاحة النهر من قلوبنا، أوكأن الكلب المخلص لإنسانيته في قصة (ود) يحس بأن الذقون تجثم على صدره وتزهق بعض ما تبقى عنده من حب للجمال والبشر، أو...

*********************

لا تترعج عزيزي من غيابنا طيلة الأسبوع الماضي. فلقد شعرنا بأن شيئا غريبا بدأ يدبّ في قلوبنا. وعندما نظرنا إلى بعضنا البعض، لم نتبادل نفس النظرة. بل كانت نظراتنا متباينة. لم نحاول أن نفسد النظرات بـــالكلام، ولا أن نتبادل الاتهامات. فقط ذهبنا إلى أبينا النهر: وجدناه يلاعب سمكة صغيرة ويداعبها، تجري منه فيجري ورائها، وعندما يمسك بها يقذفها مرة أخرى في سريره بحنو ودلال. تتراقص أختنا السمكة وتعبث بذقن أبينـــا الحنون وهى تهش إليه، بينما هو (يهشّكها) كما يقولون. وما إن ترانـــا حتى تقذفنا ببعض المياه في دلال وتذهب وهى تداري وجهها.

عندما يرانا أبونا، يعتدل قليلا، يرش علينا قطرات من مائه كالمعتاد عند تحيتنا، يفسح لنا مكانا على ضفته، يجلسنا، فندلل مياهه بأقدامنا الحافيـــة وكأن ضفته مسجدا لا يحق لنا أن نقف عليه بأحذيتنا ... يبصر القلـــق الذي يغالب هدوءنا فيرشّنا ببعض الطمي، ننتشي، لكن العكر مـــا زال

يقلق هدوءنا، يرى أبونا الحاجز الذي يقف بيننا، فينصحنا أن نبتعد عن بعضنا لمدة أسبوع حتى يحسم كل منا موقفه ويعود إلى انسحابه القديم، وإن قابلنا بعضنا البعض في الجامعة لا نتكلم أو نتبادل النظرات وكأننا لا نعرف بعضنا، وعندما يمر الأسبوع نلتقي على مقهانا فنجد أنفسنا استرددنا ما فقدناه.

**********************

أتمنى عزيزي أن تكون أدركت الحكمة من وراء غيابنا عنك أسبوعا كاملا. من المؤكد أن النهر حدثك عن نصيحته لنا، فلقد رأيتك من فوق الكوبري أول أمس تناجيه أسفل الكورنيش بجوار مدينة ناصر. ها نحن عدنا إلى انسحابنا القديم وتجمع شمل نظراتنا بعد التباين والتشتت. لا أطيل عليك، أحضر لنا سراج الدراسة، وجدناها تبعدنا عن أعمالنا، كما أننا لا نفهم منها الكثير، فهي كما ترى مليئة بكلمات لا يمكن أن يتجاوب معها طمي النهر في دمائنا، مثل التشظي، انزياح البؤرة، الحداثة، التمركز حول السبعينيين، انكسار أفق النص، أزمة الإنسان المعاصر. بالله عليك، هل ترانا في أزمة؟! أرى في عينيك نظرة استنكار. لك الحق أن تستنكر مثلنا. لذلك لم نندهش، عزيزي، عندما وجدنا ما يسميه قراءة تنتهي بكلمات لا تعرف الجذور:

"هل أستطيع أن أقول إنني الأب الروحي لهذه الجماعة ؟!"

نحن لا نعرف أبا مشتركا لنا إلا النهر، هو الأب الوحيد الذي يجمع القلوب البكر..... فلا نملك عزيزي إلا أن نمزق هذه (الدراسة). ها هي، تش تش ، فلتذهب إلى الصور الحجرية مادامت لا تنبع من أعمالنا، أعمالنا التي لا تعرفها.

# الأب

بعد العصر تبدأ مقهى علاء (أو مقهى الأدباء لاحقا)في الانفساح، فتوضع المناضد والكراسي في الناحبة المقابلة من الشارع بجانب السور، على ما يشبه الرصيف.كما أن الشارع يتسع. فلقد انصرف الباعة المتجولون بعرباقم الخشبية بعد أن أفرغوا محتوياقا في أكياس المشترين وتبدأ المناضد في لم شمل الرواد حولها فتحلو الحكايات وتنفتح منافذ الفضفضة .

يجهز لنا علاء مكاننا: يضع منضدتين بجانب بعضهما ويرص حولهما الكراسي تاركا بينهما فسحا تسمح بحرية الحركةفنحس بسعة المكان نتبادل أطراف الحديث المنساب أو نجلس في صمت متأملين إلى أن نكتمل فنبدأ في تلاوة أشعارنا أو قص حكاياتنا. أميل على يوسف ( والله لك وحشة يا أبا الأسياف)، فينظر إليّ بود ثم يصطنع الجدية ( ما بك يا عم إيهاب؟! كنا مع بعضنا بالأمس، كثرة السلام تقلل المعرفة). (والنبي تقول لي قصيدة). يبدأ على الفور كأنه كان ينتظر مني أن أطلب منه ذلك أو كأن نهرا فاض تياره وينتظر أن يفتح منه مجرى صغيرا حتى ينساب ويروي الغيطان المتشققة. فأستمع إليه في صمت وتركيز كأن لقصيدته حضورا كبيرا فلا أملك إلا أن أصطاد من نهرها في صمت وخشوع اللآلئ الطازجة.

ها هو سراج وصفي قادم. تتناغم قدماه في المشي وكأن هذا المشي هواية مفضلة ينميها ويطورها إلى أن تصير موسيقى عذبة الإيقاع شعرية الملمح. يبدو أنه لم يستطع أن يقابل إيناس. فعلى وجهه تظهر علامات يشوبها

قدر من الحزن الهادئ. لا يخرجه من هذه الحالة إلا أغنية لمحمد منير أو الشيخ إمام أو حنان ماضي. فنبدأ في الغناء وننظر إليه بعيون بها مسحة من المكر كأننا نكايده.يصافحنا مبتسما وينادي على علاء شاي بحليب. يسأل عن بقيتنا فنقول له بالتأكيد في الطريق نجاح عبد النور قادم. يعدل من وضع نظارته فتبدو أنها قد قفزت للأمام عندما حاول أن يتفادى السقوط في الحفرة الصغيرة التي تتوسط الطريق بمائها الراكد. يلوح لنا ببعض الأوراق. نبتسم ونخرج له ألسنتنا. بالتأكيد كتب قصة جديدة. يعشق الأدب بجنون ويعتقد مثلنا أنه قادر على تخليص البشر من أحقادهم. يلقي علينا السلام، فنرد عليه ثم نرمقه بدهاء ( يا ابني ألست مسيحيا؟!!) نحاول أن نستدرجه ونجعله يتكلم باستفاضة. فتعجبنا دائما طريقته في الكلام: يتكلم كأن الكلام ينساب من دمائه وإن لم يحمل لون الدم. يحتفظ بحرارته ودفئه وتدفقه بالحياة، ولا يريق دماء وردة نابتة أو يقصف رقبة قلب أو قلم بكر. يرعى نبتات الأدب الوليدة ويروي أشجاره الباسقة مادام ينبت في أرض الوطن. لكنه ينتبه للمقلب ويخرج لنا لسانه ويجلس راضيا. يبدو أنه عمل عملا عظيما. تمرح الابتسامة التي لا تفارقه أبدا ويخطف مني مبسم الشيشة.

أحمد عبد الحكم يضع يده في جيب بنطاله الجينز الوردي الذي هربت بعض ألوانه من كثرة اللبس. يميل في مشيته كأنه يتكئ على جانبه الأيمن. ما أن يصل إلينا حتى يميل عليّ (هات سيجارة يا أخي). (تعرف أننا على المقهى لا ندخّن إلا الشيشة). ينكمش في الكرسي، فنطلب منه أن ينشدنا إحدى قصائده، واعدين إياه، إن فعل، أن نحضر له نصف علبة سجائر.

يبدأ: (اللون الرمادي حقير...). (لا، قل لنا: دواير، دواير/ حلمــك في الفضا داير، وإلاّ غنينا لك "شنطة سفر" لأنغام). فيدفن وجهه في المنضدة أمامه ويبكي بشدة كأن كلامنا نبش جرحا غائرا في قلبه. فنربت عليــه برقة. ننظر إلى بعضنا، وفي لمح البصر نبدأ في غناء أغنية(نامي) لعايــدة الأيوبي ونحن نربت على ظهره بحنو وانتظام: "نامي نامي يا صغيرة/ يالله اغفي عل الحصيرة/ نامي في حضن ايدية/ بكرة شمسي جاية/ هتدفينا بحب كبير/ وتلملم كل الجيران". يبدو أن أيادينا خففت عنه بعض الــشيء، فيرفع رأسه وينظر إلينا بعتاب: يا جماعة، تعرفون أن أغنية أنغام تعذبني"). نود أن نكايده ونعرف السر الذي لا يبوح به أبدا: كيــف تعــذبك؟!! يتجاهلنا وكأنه لم يسمع السؤال، ثم يعبث بكوب الشاي الفارغ أمامــه شاردا. يبدو أنه يفكر في شيء ما. يشرد إلى أن يبدأ في الكلام: يا قلبي يا بكاي سايق عليك النبي تقسى". يتوقف فجأة وسرعان ما يعاود البكــاء وجسمه ينتفض هذه المرة.... لكنه لا يرفع رأسه ولا يعاتبنا. يبــدو أن دموعه أخذته للنوم، فلا نشأ أن نقطع عليه صمته وسكينته.....

يرفع رأسه بعد فترة. يهزها وكأنه ينفي شيئا ما أو يطرد فكرة ما عــن ذهنه أو يرج مخه حتى يترسب شيء ما ويظل ساكنا في القاع لا يظهر ولا ينشط. ثم ينسحب من بيننا: "أنا ذاهب لأحضر جمال الجزيري". "لكن جمال يدخن شيشة". فيضحك وكأن شيئا لم يكن ويجلس مكانه. لكنه سرعان ما ينهض: "لكنني سأذهب لأحضر جمال". فنعــود إلى مباســم الشيشة ونحن نودعه في صمت....

***********************************

ما بال أحمد لم يعد ؟؟!! ماذا حدث لجمال ؟!! الشقة لا تبعد أكثر من خمس دقائق. يجب أن نذهب لنطمئن عليهما. فننادي على علاء: نـدفع الحساب ونذهب...

نضغط على مفتاح الجرس. الباب ساكن لا يتحرك أو حتى يعبر عن مجرد الرغبة في فتح ذراعيه لنا. هل يمكن أن يكونا قد خرجا؟!! وإن كـان، فمن المؤكد أننا كنا سنقابلهم في الطريق... "سأفتح الباب، يا عم حـرام عليك، الجرس سيحترق". ننسحب بسرعة من أمام الباب ونختبئ علـى السلم. يفتح أحمد الباب وعندما لا يرى أحدا، يرفع يديـه إلى الـسماء ويستعيذ بالله. يرمي بعقب السيجارة على السلم وكأنه يرجم به كائنـا رجيما، ويدخل....

نضغط مرة أخرى.... يخرج أحمد ممسكا بعصا المكنسة. وقبل أن يهوي بها على أحدنا، نقول له: "أحضرنا لك السجاير". فيلقي بالعصا: "الحمد لله أنكم جئتم". "ماذا حدث؟". "جمال يا أبا العم أحضر لي نصف علبة سجائر واعتقلني في الشقة ليسمعني بها قصصا ". "أرجع للكتابـة هـذه الأيام؟!!!". "نعم، ويريد أن يأخذ رأيي في المجموعة كلـها!!". فنقهقـه بمداعبته وقبل أن يخرج إلينا جمال، نكون قد تسللنا كلنا إلى الشارع....

من أسفل العمارة ننادي على جمال.. عندما ينظر إلينا، نرى شعره أشعث على غير عادته، فنقول له: "الْحَقْ بنا على النيل". "يا جماعة أرجـوكم"، يقولها وهو يكاد يبكي مادا يديه كأنه يطلب الغيث أو يرانا قريبين منـه فيسحبنا إليه. نهز له رأسنا، ننتبه للمصفّحة المارة بجوارنا، فنبدأ في الغنـاء حتى لا "يشتبه" فينا من بداخلها ويقتادنا إلى الحجرة اللعينة بقسم ثان لا لشيء إلا لأننا مجموعة مع بعضنا؛ ثم نشتري معسلا ونصعد إليه...

# تـنـويـعـات

في الشوارع الصديقة تجدنا سائرين، ربما نغني لحنا من ألحان سيد درويش الشعبية أو نرّقي أنفسنا بأغنية للشيخ إمام. نبتسم لرؤيـــة العاشـــقين في حديقة الفردوس، أو نداعب طفلا يمشي بجوار أبويه، أو نميل على زيـــر نابت تحت شجرة ونشرب منه ثم نسكب ما تبقى من الماء في الكـــوب على جذع الشجرة.... يجري أحمد عبد الحكم أمامنا. ينظر لأعلى وهو يرفع يديه ويترهما كأنه يتقاذف كرة: "دواير، دواير، حلمك في الفـــضا داير...". نضحك عندما يصطدم بأحد المارة، وقبل أن نبتسر الضحك، يرفع المار يديه: "حكمتك يا رب". يحملق أحمد فيه كأنـــه يمثـــل دور المجنون، ويقول للمار: "مجنون، ألستُ كذلك؟!!" فيـــضحك الرجـــل ويكمل سيره... ينتظرنا أحمد ويمد يده: "هات سيجارة يا أخي". يعطيه إيهاب سيجارة، فيوقف أحد المارة: "هل معك كبريت يا عم؟"

عندما نكون قد تركنا المصفحة التي تربض على أول الكـــوبري أمـــام مسجد الزكاة، ننظر للوراء ونخرج لها ألسنتنا بعد أن نتأكد من أن مـــن بداخلها لا يراقبوننا، فالجبن أحيانا حيلة. لا نجرؤ على أن نخرج لها ألسنتنا أمامهم مخافة أن يأخذونا إلى الحجرة الضيقة ذات الرائحة الزنخة. فلقـــد اقتادونا إليها ذات يوم ولم نفعل شيئا، فما بالك ونحـــن نخـــرج لهـــم ألسنتنا!!!....

نحس بالأمان عندما نشعر أننا بجانب النيل أبينا الحنون. فتنساب داخلنـــا الأحلام وتتدفق الآمال، فنرنو لمياهه الحالمة ونغني له أغنيـــة أم كلثـــوم: "نامت ورقت قلوبنا لما رق هواك، وصفونا بالمحبة هو هو صفاك". فـــيرد

علينا بكلمات تعزف نغمات رقيقة تكفي لجعل القلوب القاسية والعقول المتحجرة ترق وتلين: "يا أبنائي عليكم بالتمسك بتلقائيتكم وبساطتكم وصدق إحساسكم وطزاجة الآمال". فننظر إليه بامتنان لشعوره بنا وعطفه علينا وأبوته المتفهمة. ويبدو أنه سعد بامتناننا، فها هو يخرج سمكة جميلة من رحمه ويراقصها أمامنا...

يزداد عشقنا للنهر، ونمشي ببطيء علنا نبقى أطول وقت ممكن في حضن حكمته وحكاياته الزاخرة بالتفاصيل الواعدة... نبصر أمامنا بنتا كأنها قطعة من النهر، وجهها ذو وضاءة وإشراق، يلتف الحجاب حول وجهها فيجعلها بدرا منيرا. عيناها لا تلتفت يمينا أو شمالا، بل تمشي في حياء ورزانة، ينساب عودها كأنه شجرة مستقيمة لينة نابتة في ضفة النهر... نمشي بجوارها في أدب وصمت، سبحان الله الذي خلق هذا الجمال البديع والحمد له الذي وضع في الأرض هذه الرقة وهذا التناسق... عندما نتأكد أنها بعدت عنا ولن تسمعنا، نبدأ في غناء أغنية صباح فخري: "العزوبية طالت عليّ، قومي اخطبي لي يا ماما واحدة صبية، عروسة خاطبة ما تكونش مطالبة، هاتي العروسة يا ماما وخدي لي هدية...". نداعب النهر: "بنتك حلوة يا نهر". فيرد مازحا: "والنبي أنتم أحلى". فنرد عليه مزاحه: "سنغتر بأنفسنا هكذا".

يقول لنا النهر إننا نعطله ويطلب منا أن ندعه يكمل شغله، فنقبّله في الهواء ونكمل سيرنا... لكننا نشتاق إليه في الحال. نتوقف، نضع أيادينا ورؤوسنا على سور الكوبري ونتأمله في صمت... المويجات تنساب كأن كل مويجة تحمل الحياة في حناياها. لا نعرف لماذا، في هذا الوقت بالذات، تعاودنا رغبة ملحة في مشاهدة فيلم (سارق الفرح) للمخرج داوود عبد

السيد. ما أجمل أن يمسك المرء منظارا فتنكشف من خلاله مظاهر الحياة في حارة كاملة بأكملها[8]. تتحرك الكاميرا بتلقائية لنرى حياة تتشكل، قد لا تكتمل ، لكن يكفي أنها تتشكل أمامنا. يرمقنا النهر بحنان، ثم يكمل ما هو شارع فيه. نحس أننا قد عطلناه كثيرا.

نرى بنتا تتباعد رجلاها عن بعضهما قليلا. يبدو أنها فقيرة، فلم تستطع أن تشتري قماشا لتكمل جيبتها حتى القدمين. فالجيبة لا تصل إلى الركبتين إلا بصعوبة. تتلفت عيناها يمينا وشمالا، كأنها تبحث عن شيء ما. شعرها يتطاير في الهواء، فلا تحاول أن تلمه. تحملق فينا وتبتسم. عندما نمر بجانبها، نعاكسها بأغنية سيد درويش: "الراجل لو بصبص ليكي، ايه ذنبه دا الحق عليكي". فتتوقف وتبتسم وهي ترمش لنا، تشير بيدها إشارة لا نفهمها، فنجري متضاحكين دون أن نلتفت إليها....

قبل أن نصل إلى نهاية الكوبري، نلمح المصفحات رابضة في أماكنها وكأنها أصبحت ملمحا من ملامح المدينة. النسور الصخرية تتحفز منها. فنبدأ في التحوقل بأغنية محمد منير: "طفي النور يا بهية، كله عساكر دورية[9]" نميل إلى النهر ونهمس في أذنه: "ما رأيك يا نهر؟!" فتهيج أمواجه وتتخبط في بعضها: "لا تكلمني عنهم، لا هم من صلبي ولا أعرفهم...."

عندما نقترب من المصفحات والنسور، نبتسر أغنية منير ونبدأ في الرقص بأغنية لإحدى الحناجر التي لا تعرف النغم أو النهر، فيبتسم لنا أحد النسور: "ارقصوا. دعكم من الخطب والشيوخ أولاد ال..."، فنبتسم له

[8] يبدأ الفيلم بحسن حسني على ما أذكر وهو يمسك بمنظار ويسلطه على أحد الأحياء الشعبية المجاورة، ثم تنتقل الكاميرا تلقائيا بعد ذلك إلى هذا الحي الشعبي الذي يعد الموقع الذي تدور فيه أحداث الفيلم.

[9] وفي رواية أخرى "كل العسكر حرامية".

ابتسامة باهتة ونلعنه في سرنا. نتوقف عن الضجيج، عندما نـــرى أحـــد العساكر المساكين؛ يتكئ على بندقيته نائما، يبدو أنه متعب جدا أو يقف غصبا عنه...

عندما نصل إلى جمعية الشبان المسلمين، نتجه يمينا ونذهب إلى (عم علي) صاحب كشك الصحافة. وعندما يلمحنا، يشير لنا مرحبا. فنرد عليـــه الإشارة بإشارة وابتسامة. يبادرنا بالقول: "مجلة القاهرة ومجلـــة فـــصول نزلوا". فنشكره كأنه قدم لنا خدمة جليلة. نقلب القاهرة: عدد خاص عن نصر حامد أبو زيد. فنشعر بالامتنان لغالي شكري ولهيئة الكتاب بأكملها على فرد عدد كامل لمن نجح فقتله الفاشلون. نقلب صفحات فـــصول. نجدها الجزء الأول من( الأدب والحرية). فتلمع عيوننا ببريق يود جـــابر عصفور ويستقر في قلوبنا. يلمح عم علي فرحتنا، فيقول لنا وكأنه يريد أن يجعل فرحتنا فرحتين: المجلس الأعلى للثقافة أصدر سلـــسلة جديـــدة اسمها(الكتاب الأول). نجد كتابا صغيرا جميلا يحمل عنوان(دراســـات في تعدي النص) لوليد الخشاب. نشتريهم جميعا. نضع ثمنهم في يد عم علي ونحن نربت عليها تربيت شكر وعرفان سلام يا عم علي، سلام يا شباب. نودعه مبسوطين ونحن تحوطنا سعادة شابة تتراقص وتغني لنا أغنية: "سحر المغنى في قلبه جمعنا روح بتغني لروح..." لمحمد منير. نلمح مـــن بعيـــد صديقا قديما نكن له قدرا من الود، نبتت بعض الشعيرات المتناثرة أسفل ذقنه. عندما يرانا، يبعد عينيه بعيدا وكأنه يحاول أن يتجنبنا. ننادي عليه، فلقد كان صديقا حميما. نود أن نأنس بصداقته القديمة. فمـــا أروع أن يحس المرء أن هناك من يشاركه الذكريات. ندعوه للجلوس على المقهى معنا لنشرب الشاي سويا. وكأن هذه الدعوة أسقطت سهم الله عليـــه:

تحمر عيناه ويقذفنا الشرر بسهام غريبة. لِمَ يغضب هكذا وقد كنا نجلس سويا على المقهى من قبل؟!. لكنه لا يدع تساؤلاتنا تهدأ. فيستأذن منا متعللا بأنه نسي موعدا مهما... ننظر إليه: نجده يسرع الخطى وكأنه يود الابتعاد عن موطن شبهة أو مكمن خطر....

نتجول في الشوارع القديمة وكأنها جزء منا لا نكتمل إلاّ به. فنلقي السلام على رفاعة الطهطاوي ومكتبته على يميننا. ثم نعرج إلى الشوارع التي نحس فيها برائحة البشر الطيبين وازدهار البساطة والعفوية. نقف نتأمل مبنى قديما يحمل عبق التاريخ وسط جدرانه التي تقف صامدة أمام نشاط الزمن وحركته... يعطي نجاح ظهره للعمارة العالية التي تبدو نبتا شيطانيا وسط البساطة والقدم. يملأ عينيه من هذا البيت العتيق. يبدو أن البيت ملأ عليه حواسه: فها هو يردد كلمات قصته، وكأنه يمحي كلمات الدكتور الذي يحكّم مسابقة القصة وخطّ على قصة نجاح "أشك في أن هذه القصة مسروقة" وكأنه يشكك في أن يستطيع ولد شاب أن يكتب قصة جميلة.....

نصل إلى عم سلطان صاحب مطعم الكبدة الصغير. نجد بعض الزبائن يأكلون في نهم وتلذذ. نرى منضدة خالية فنسرع إليها. يمسحها عم سلطان بفوطة صغيرة نظيفة ويحضر لنا ستة أطباق يتصاعد منها بخار خفيف. نمسك العيش الساخن ونبدأ في التلذذ بطعم الكبدة بعد أن نضيف لها التوابل من الطبق الصغير أمامنا... ثم نعرج إلى مقهى(ملتقى الشباب)خلف المحطة بجانبنا.نسحب كراسينا إلى الناحية الأخرى من الشارع ونشير لعم سيد. نجلس نتأمل الأولاد والبنات الراجعين من بلداتهم يحملون قدرا من الفرحة برؤية أهاليهم وقدرا من الشوق إلى الأصحاب في الجامعة مع بداية أسبوع جديد....

## يبدو أن

### (أ) أحمد عبد الحكم

رصيف المحطة ثقيل. صوت القطار يولول ويبتسر بعض الهمسات القلقة التي يمكن أن تبدر من مشهد الرحيل. تنزف منا بعض الدماء. نبتلعها ونتظاهر بثبات ليس له جذور. فنغني لأحمد أغنية(شنطة سفر) لأنغام. يبكي. يميل برأسه على صدر أحدنا وتتشبث يده بالعامود الواقف شامخا على أرضية المحطة. نحتضنه جميعا، فتسقط دموعه نارا متقدة تحرق ما تبقى من أمان في صدورنا... ينعق صوت القطار، فيلملم كل منا أطراف جسارة مصطنعة ونقوده صامتين إلى مقعده: يجلس ذاهلا وهو يهمهم بعض العبارات نسمع منها: "لمن ستتركوني؟!! سأموت لوحدي؟!!" نتجنب الرد على سؤاله ويقول أحدنا مداعبا: "هات سيجارة يا أخي". فتبدر بسمة على شفاهنا لا تكتمل. فالقطار بدأ يعوي مهددا شاهرا قضبانه أمام أعيننا. فنقبل أحمد بسرعة ونخرج يصحبنا خوف من شيء ما... ننظر إلى بعضنا في ذعر ونحن نلوح لأحمد مصطنعين الابتسام. فينظر إلينا القطار بتشف كمن كان يبيت لنا ثأرا قديما، فننظر إليه وكل منا يردد لوحده كلمات أغنية وجيه عزيز:"يا قطر أحلامنا النساي، ازاي تروح وازاي مش جاي!!!" دون أن نجرؤ على أن يتناغم غناؤنا.

### (ب) يوسف الشحات

يبدو أن عائلة القطارات اتحدت أخيرا بعد كل تشتتها وخلافاتها. فها هو قطار آخر ملعون يزهو في كبرياء ويضغط على رصيف المحطة حتى يكاد يخسف برصيف المحطة الأرض. تبدو في ملامحه علامات انتصار وهو

يرشقنا بسهامه الحادة. يقدم يوسف الشحات بطيئا يجرجر بقاياه ونظره لا يكاد يستقر على شيء. نحمل معه حقائبه الثقيلة المليئة بالكتب لابد. نرجم القطار بأحجارنا الصغيرة. فيقذفنا بحجارة كبيرة يهوي أحدها على رأس يوسف: يشجه، فتسيل الذكريات، تملأ رصيف المحطـــة وتلتـــصق بالجدران معلنة تحديها وإصرارها على البقاء في شوارع سوهاج الحميمة. يتحسس يوسف رأسه وينظر في أعيننا فلا نجرؤ على لقاء النظرات. يمعن النظر فينا شاردا، ثم يقول بصوته المتحشرج: "هل بذلك انتهت حياتنا؟!" نحاول أن نربت على كتفه بالرغم من أننا نعرف أن كل محاولاتنا هباء. يبدو أنه غير مقتنع بأي شيء. فنحاول أن نواسيه بكلمات أغنية حنـــان ماضي:"لو كان بادينا كنا وقّفنا سنين زمانا، ويضيع العمر منا وتعـــيش الذكريات". فيرد وكأنه يكلم نفسه:" لماذا يا حنان؟ ألا تعرفيننا؟!!" في هذه اللحظة بالذات يصرخ القطار، فيشق قلوبنا أجزاء ويدهسها تحـــت عجلاته اللاهية. يصرخ فلا نجد بدا من أن نسلمه يوسف طائعين كارهين في هوان. وقبل أن نرفع أيادينا نودعه، يبصق علينا القطار ويعدو بعيدا.

## (ج) ايهاب عباس

يبدو أن عائلة القطارات أحست بطعم النصر وشعرت بكامـــل قواهـــا فازدرت واستهانت بكل من عداها. فها هي ترسل لنا فسلا صغيرا لكي يواصل هجوم العائلة بأكملها ويضغط بعجله الذي لا يعرف الحرية على كل من يخالف إرادة العائلة المقدسة. ينظر إلينا إيهاب عباس بغباء كأنه لا يعرف عن هذا العالم شيئا، أو بتغابي كأنه يعرف كل شيء ولا يريد أن يفصح عما بداخله. يرمقه القطار بنظرة فيها كثير مـــن الكـــبر والثقـــة بالذات. وكأن القطار يستشف ما يمكن أن يدور بخلد إيهاب، فها هـــو

يطلق صوتا دمويا يهز جدران المحطة الشامخة. يربت علينا إيهاب تربيتا لا يخلو من ثقة وكأننا نحن الراحلون وهو قادم ليودعنا. لكن عينيه لا تعرفان الثقة ولا الأمان. تتجولان على وجوه المسافرين في حياد ذاهل ثم تثبتان علينا كأننا نهاية المطاف. يخرج من صمته بعد فترة قد تطول. يتوجه إلى سراج: "أمانة يا سراج تسلم لي على نصار عبد الله". يلتفت جانبا حيث أقف: "أمانة تنزل كل يوم النيل وتبوس لي مياهه". فيربت نجاح على كتفه محاولا أن يصرف عنه أي أفكار تشاؤمية. فيهمس إيهاب في أذنه: "أمانة تقعد كل يوم على مقهى علاء وتشد حجرين نيابة عني". فنحـــاول أن نبتسم. لكن شفاهنا لا تطاوعنا إلا بعد عناء كبير. يدوي صوت القطار معلنا قرب الرحيل، فيتحامل ايهاب على نفسه وينهض. يتمتم لنا بأغنية أمل وهبي: "محتاجين كل اللي راح يا زمان اللمة والبيت الأمين". فنـــرد عليه بكلمات الأغنية نفسها: "المعاني الباقية لينا مش كفاية ومحتـــاجين". يصرخ القطار صرخة انتصار فلا يملك ايهاب إلا أن يتقـــدم مستـــسلما ويسلم نفسه لعربة القطار. عندئذ ينطلق القطار مسرعا وكأنه اســـتولى على الغنيمة التي يريدها.

## (د) نجاح عبد النور

يبدو أن قبيلة القطارات قد حققت ما تريد أو أنها بدأت في التوســـع في كل الأماكن ولم تعد تعبأ بالأمور الصغيرة مثل أمورنا. فها هي ترسل لنا شيخا عجوزا ضريرا يتوكأ على رصيف المحطة وكأنه لا يقدر على السير. يرفع زجاجة الخمر على فمه المتدلي ثم يقذفها فارغة.فتنكسر على رصيف المحطة وتتناثر قطع الزجاج معلنة الدماء في وجه كل من يخرج من القطار.

تثقل الحقائب التي نجرجرها خلفنا، فنتوقف قليلا. نفك أســـر أرجلنـــا المتقدمة في استقامة نحو القطار. نلتفت إلى نجاح: نجده مبتسما كعادتـــه يوزع البراءة والصدق على القلوب المتعطشة ويروي نبتة حنون يمكن أن تنمو على الرصيف. يلتفت إلى سراج في حنو ثم يحتضنه إلى أن يعتـــصر جسمه النحيل. يربت على يديه الضامرتين ثم يقول له: "كيف حال ايناس السيد اليوم؟" لكن هذه المداعبة اللطيفة لا تخرج سراجا مـــن وجومـــه وصمته الأليم.

ينظر إليّ نجاح في بشر وأمل: "لا تؤاخذني، لن أقدر أسمع قصصك. ليتك ترسلها لي أولا بأول". تبدر مني علامات سخرية رافضة. فما جـــدوى القصص الحياة والرفاق راحلون؟!! ما قيمة الكتابة وحبرها الرقيق دهسه القطار؟!! يبصر ما يتجول في عيني من شك وقلق، فيضمني إلى صـــدره حتى تكاد ضلوعي تتداخل في بعضها البعض راضية مرضية. يربت على ظهري في ود ويهمس في أذني: "لا تيأس". فأترك لوجهي العنان ليرقـــد على صدره في استكانة ورجاء، وأهمس في صدره: "كيف تينع شـــجرة الأمل والعصافير التي تغني لها مهاجرة؟!!" فيرد علي بصوت ملئه الدفء والحميمية الصافية: "الأدب محتاج لنا". يدمدم صوت القطار، فأنتزعني من صدره كراهية. وقبل أن نلوح بأيدينا نغني له أغنية حنان ماضي: "ونتفرق ونتلاقى، نلاقي قلوبنا مشتاقة، ومهما البعد كان بينا، مسير الحي يتلاقى". فيلقي القطار زجاجة أخرى على القضبان. ولا يملك نجاح إلا أن يخرج من بيننا بطيئا متألما كأن جذوره ضاربة فينا، كما تقول ماجدة الرومي. يبتسم لنا من باب القطار راجيا مشتاقا، فنقبله في الهواء ونظرنا لا يفارقه.

## (هـ) ملتقى الشباب

مازلت أنا وسراج صامتين ذاهلين نقف على المحطة وكأننا لا نصدق ما حدث أو يحدث.يوشك القطار أن يتوارى ولا تود أعيننا أن تفارق أثره. نلمح من بعيد طيف قطار يعدو نحو المحطةفنفزع أمسك يد سراج ونجري بسرعة متخوفة.نتوارى في النفق تحت المحطة. نكاد نرى عيونا تبحث عنا، فنحاول أن نخبئ وجوهنا ونحن نذرع درجات السلم من الناحية الأخرى في خوف وأمل.ننظر للوراء. يبدو أن العيون لم تجد فينا أي أمل فانصرفت تاركة إيانا علّنا في يوم نكبر ونسمن فتجدنا وجبة شهية.

نتجه لمقهى (ملتقى الشباب) خلف المحطة حيث نشعر بدفء الجلسات القديمة وببقايا قصص كتبناها قد تزدهر يوما ما. يرانا عم سيد عامل المقهى الطيب، فيجئ إلينا: مساء الخير يا شباب، شاي بحليب وشاي ليبتون فتلة، أليس كذلك؟" أنظر إلى سراج فأجده ينظر إلي وتتناقل أعيننا نفس الكلمات: لا يا عم سيد، هات لنا سحلب وشاي كشري مظبوط وشاي في الخمسينة وقهوة سادة" لأحمد ونجاح ويوسف وايهاب على الترتيب كما يقولون.ينظر إلينا عم سيد باستغراب. لكنه ما يلبث أن تبدو في عينيه علامات ود وتفاهم، فيحضر الطلبات مبتسما ابتسامة خفيفة ويربت على أكتافنا في تعاطف لم نتوقع أن يكون بهذه الحرارة والصدق.

نرتشف سويا رشفة من السحلب ونتغنى ببعض أبيات من قصيدة لأحمد. أنغام أشعاره واضحة تتراقص على حدود مملكة الموسيقى. نتلمس قطرات من شاي يوسف، تنبه داخلنا الإحساس بالشعر الفصيح، فنترنم بقصيدة(قمري مرسوم بالكلمات)... تصحو داخلنا الرغبة في الحكي فنتقاسم قهوة ايهاب. نحس بطعم المرارة الملقاة على أكتاف هذي الأرض، فيخفف عنا مطلع قصة (قهر الحيطان) لايهاب بتلقائيته وعفويته وطزاجته.

تنمو الطزاجة داخلنا، فنرد شاي نجاح عذبا رقراقا. تتماوج بنا الرقرقة فنعرج إلى قصة (لاعبو الدومينو) لنجاح: نتلوها عن ظهر قلب ثم نعيدها مرة أخرى كأنها تعزف على شيء ما داخلنا، نجد قلوبنا تطرب لها وكأنها الدم الذي يسري في العروق ليصل إلى القلب معلنا الحياة من جديد.

نفزع عندما نرى الأكواب كلها فارغة أمامنا وكأن سكينتنا وأماننا في ذلك السائل الذي كان يملأها... فنرفع رؤوسنا. نتكئ للوراء على كراسينا علّنا نجد في الوجوه شيئا ما نبحث عنه. يتلاشى بعض من الفزع. فنجد أنفسنا بدون وعي نردد كلمات قصيدة(يا حواري لسة في سوهاج) لعمر نجم. يهرب الفزع عندما يواجه الكلمات الصادقة الدافئة... تزيل الكلمات قدرا من الشك وتكسونا بغلالة شفافة من السكينة والدعة. نستمرئ هذه الغلالة فلا نريد لها أن تنقشع. لكنها تنسحب عنا تدريجيا إلى أن تتركنا عراة إلا من الملابس التي نرتديها.

ينظر كلا منا إلى الآخر في قلق، كأننا نخاف شيئا ما، أو كأن روح أحدنا معلقة في عين الآخر، أو كأن شيئا حميما يوشك أن يتوه فلا نستطيع الإمساك به بعد الآن... فنسحب دخان الشيشة في صمت علّنا نجد بعض الاطمئنان في ذلك الدخان الذي يتشكل أمام أعيننا في هيئة مخلوقات شتى. لكن الدخان يزيل عن قلوبنا بعض من الكدر دون أن يبعث الإحساس بالأمان....

يقترب منا عم سيد، فننتبه إلى أن المقهى خال من الرواد. أنظر في ساعتي. مر الوقت جد سريع. فتتسلل يدي إلى جيبي. يقسم سراج أن يدفع الحساب. "لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم"، أقولها له وأضع الحساب في يد عم سيد... ينظر سراج في ساعته. يمسك يدي بقوة: "لا تتركني. لا أقدر أن أبقى لوحدي". نتبادل الدمعات. أسحب يدي. لا مفر.

# الجرذان

تجلس الأستاذة. عيونها لا تكاد تستقر على شيء. يقول المكر القـــابع في مؤخرة عينيها: "لا يمكن أن يدخل بيننا. إنه مشاغب. يريد أن يناقـــشنا ويحتفظ بشخصية مميزة. سيفسد ما نحن مستقرون عليه وسيقلب الموازين التي جاهدنا طوال حياتنا أن نحتفظ بكفتها الراجحة لنـــا. لا يمكـــن أن يدخل. فمجدنا لا يمكن أن يتم المساس به. إنه مشاغب وجرئ، لا يقنع بكلام أساتذته الكبار....". تنفث سموم لسانها في الآذان الوديعة لبعض الأساتذة...

تجلس تلك الأستاذة في كرسيها الوثير. تتكئ للوراء وتدور بالكرســـي وهي تركز على نقطة لامرئية في الهواء أمامها ...يبـــدأ مـــشهد مـــا في التشكل ...تجلس على الكرسي خلف المنصة في القاعة. تمسك مسرحية عطيل بين يديها اللتين فعل بهما الزمن ما شاء. تقـــرأ بعـــض الـــسطور كعادتها عند "شرح" أي عمل مسرحي: شوفوا يا أولاد عظمة شكسبير، روعة شكسبير، عبقرية شكسبير. من كتب أفضل من هذا؟!!!!!!!!! لا يوجد إلا شكسبير في العالم كله. الله الله يا شكسبير.....

ترفع يديك بعينيك الحائرتين وملامح القلق التي تعتريك، فتبتسر الابتسامة من على وجهها ذي التجاعيد الواضحة. تنظر إليك كأنها لا تراك مـــن خلف رموشها المجهدة التي تريد أن تنطبق على بعضها ولا تنفتح بعد ذلك أبدا، ثم تقول باشمئزاز وقرف: "أهو أنت مرة تانية!! ماذا تريد؟!" تكاد كلماتها ذات الوقع الثقيل على أذنك ترديك صامتا. لكنك تتمسك بكل ذرة من ذاتك التي تحاول تلك الكلمات أن تدهسها . فتبـــدأ في الكلام

باستفاضة عن تتابع الأجيال والحذر من الانبهار الطائش...
تمسك فنجان القهوة أمامها وتضغط عليه حتى يكاد ينكسر. تضغط على مفتاح أمامها. فيأتي العامل مهرولا مخافة أن يصيبه لسانها بكلمات جارحة: "قهوة زيادة بسرعة" عندما تستقر القهوة بين يديها المهتزتين، يكون العامل قد أغلق الباب بإحكام. ترتشف رشفة، فيزول عنها قدر من الغضب المتشيطن على وجهها. تدور بالكرسي الهزاز ويسرح بصرها في اتجاه آخر... تضع مسرحية (انظر خلفك في غضب) لجون أوزبورن على المنصة أمامها. تنظر إليها بقرف وريبة كأنها طفل لقيط فقير يمثل اقترابه منها إهانة لا تغتفر من وجهة نظرها وخطيئة كبرى في حقها. تسحب الكرسي للوراء كأنها تريد أن تبتعد عن الخطر الرابض على المنصة. ثم تقول:"مسرح الغضب مسرح قذر. كتابه ناس فقراء لم يجدوا ما يأكلونه ولم يتمتعوا بالنعيم الذي تهنأ به الطبقة الغنية. لذلك تمردوا وثاروا وانقلبوا على أسيادهم.فمسرحهم رديء. أين هم من شكسبير؟! أنصحكم ألا تقرءوا المسرحية وسأعطيكم مقالين ممتازين عنها"
سترفع يدك. وكالعادة ستوبخك ببعض الكلمات التي أصبح عندك مناعة ضدها. ستبدأ في الكلام دون أن تعبأ بعينيها اللتين تنظران إليك شذرا. تنظر إليك كأنك جثة متعفنة تزكم نتانتها الأنوف وتولد شعورا قويا بالرغبة في التقيؤ. ثم تقول لك:"أنت إنسان حقود صعلوك فقير. ليس لك أي مستقبل.أتحسب نفسك مفكرا وأديبا؟إن حققت قصصك نجاحا، فقل على الدنيا السلام. إذا وصلت أنت وأمثالك إلى أي مكانة مرموقة، فلتقم القيامة إذن" لا ترد عليها بالطبع. فلا تريد أن تأخذ الأمور طابعا شخصيا .كما أنها أولا وأخيرا أكبر منك سنا . يكفيك التعبير عن رأيك.

تدور بكرسيها الهزاز. تحس بحرارة شديدة بالرغم من برودة هواء جهاز التكييف. تبصر الحجرة حولها مليئة بالجرذان والحشرات، فتشعر بالدوار وتركن إلى الكرسي لتحتمي به. ثم تغمض عينيها كأنها في غيبوبة تامة..
عندما تواسي الحركة رموشها المجهدة، يقع بصرها على ساعة الحائط الضخمة أمامها، فتدرك أن مجلس القسم على وشك الانعقاد. تمسك حقيبتها الجلدية السوداء المرسوم عليها صورة شكسبير بألوان زاهية، وتخرج. يقف الحارس أو العامل الجالس على كرسيه أمام باب حجرتها مفزوعا. يؤدي لها التحية كجندي مغلوب على أمره ويخشى أن يتسرب البول أسفل بنطاله الكالح من الخوف. يلعنها في سره ويبتسم ابتسامة صفراء في وجهها المتجهم ذي الغضون الواضحة...
تدخل الحجرة التي يعقد فيها المجلس، فتجد رئيس القسم وباقي الأعضاء جالسين في انتظارها. تنادي على العامل زاعقة. تأمره أن يقرّب لها الكرسي من المائدة المستديرة، ثم تجلس وعيناها تعقدان العزم على شيء ما. تنظر إلى البند الخاص بقبول خمسة معيدين في الإعلان. تخرج قلمها الأخضر. تدون كلمة من حرفين: لام وألف. ينظر إليها رئيس القسم مستاء وكذلك باقي الأعضاء، ثم يعلنون موافقاتهم. فتنهض فزعة. تهمهم ببعض الكلمات غير المسموعة. تتضخم الجرذان أمام عينيها، فتضع يديها على وجهها: لا، تقولها بصوت يكاد يرج الجدران. ينظر إليها رئيس القسم في عجب مما تفعل كأنها فتاة ارتدت إلى مقتبل العمر تعلن رفضها لمجرد الرفض. ثم يبدأ في الكلام هادئا كعادته: "لا يوجد أي مبرر للرفض. فدرجات المتقدمين مرتفعة. كما أن أول المرشحين من أبناء القسم، نعرفه جيدا. فهو طالب مجتهد وواعد. سيكسب القسم إذا ضمه إليه. بالإضافة

إلى أن الجامعة خصصت درجات مالية قبل الإعلان". تملأ الجرذان الحجرة إلى أن تتضخم وتصل إلى السقف. فتضع يديها على رقبتـــها وتـــدلّكها كأنها تفسح مكانا للهواء كي يدخل، أو كأنها تشعر باختناق شديد: "أنا قلت لا يعني لا". فيرد عليها رئيس القسم غاضبا هذه المرة: "عبرت عن رأيك والأغلبية موافقة على التعيين. إذا كنت تتكلمين بصفتك عضوا في مجلس القسم، يجب أن تسلمي بالأمر الواقع. أما إذا كنـــت تـــتكلمين بصفتك وكيلا للكلية، فأمامك العميد ومجلس الكلية... " يزداد اختناقها. فتهرب للخارج عندما تحس بالجرذان تتسلقها وتجثم على صدرها العجوز الذي لا يحتمل الضغط....

يجتمع مجلس الكلية في دورته الشهرية. وعندما يصل الدور إلى بند تعيين معيدين، تهب واقفة: " أنا بصفتي وكيلا للكلية، لا أريد معيدين. فلا أحد من المتقدمين يرقى لأن يكون عضو هيئة تدريس". فينظر إليهـــا عميـــد الكلية في صمت وتأفف كأنها غجرية تردح لجيرانها بدون مبرر، ثم يقول لها: "أولا، قسم إنجليزي ليس به إلا خمسة أعضاء. يعني وضعه غير قانوني بالمرة. لازم نعين المعيدين الخمسة كلهم. بل سننشر إعلانا نطلب فيـــه مدرسين مساعدين ومدرسين". تبتسم ابتسامة مراوغة كأنها تستحـــسن كلام العميد، ثم تستطرد: "ولكن..." وقبل أن تتم كلامها، يرد عليهـــا وكيل الكلية: "الكرسي كله خوازيق". ويضحك فيبادله الضحك كـــل الأعضاء الآخرين إلا هي. وعندما يهدأ الضحك، يدير الوكيل وجهـــه ناحيتها ويتكلم في هدوء وثقة كأنه يتحدث إلى صديق حميم: "وقـــف التيس يحدّق في المرآة...". يبدو أنها لا تفهم أو أنها تتغابى. فينتقـــل إلى أسلوب آخر: "عندما تشرق الشمس يجب أن نفتح لها الشبابيك لكـــي

تدخل بيننا وتطهرنا من عفننا". تحرك رأسها يمينا وشمالا في هدوء كأنها لا تريد أن تفهم. تبدو علامات استياء في وجوه الأعضاء. فتستدرك موقفها وتصمت بعد أن تتوقف عن تحريك رأسها. يوقع القرار ويرسل إلى رئيس الجامعة.....

تستقل القطار الأسباني المتجه جنوبا حيث يوجد رئيس الجامعة. تحمل معها باقة ورد تحرص على ألا يتعرض الورد للشمس أو الأتربة. وفي يدها الأخرى تمسك لفافة مغلفة بغلاف جميل ورباط أنيق. ترتاح لذلك الرئيس الذي يحافظ على التميز والتفرد: فهو لا يقبل أن يدخل مكتبه عضو هيئة تدريس أقل من أستاذ مساعد.

عندما يراها الحارس أمام مكتب رئيس الجامعة، يخبئ كوب الشاي تحت الكرسي بسرعة وينهض ليفتح لها الباب منحنيا. يغلق الباب ويحرص ألا يصدر أي صوت، ثم يتنهد ويجلس مؤتنسا بكوب الشاي الساخن يرحب بها الرئيس ببشاشة وابتسامة عريضة تكسو وجهه منتفخ الأوداج. فتضع اللفافة على المكتب وتفرغ الورد في الزهرية بجانبه. ينظر إليها برضى .... ترتشف آخر رشفة من فنجان القهوة، ثم تبدأ في الكلام بثقة واطمئنان: "عاوزين يعينوا شوية صيع وبلطجية، هيعملوا شغب في الجامعة. مدة رئاسة حضرتك هتنتهي قريب وأي شغب هيمنع تعيينك مرة تانية. وكمان ميزانية الجامعة ما تستحملش..." فيرجع بكرسيه للوراء ساحبا معه خيط أفكار ينتهي بتعيينه لفترة رئاسة أخرى. كما أنه يقلق على الميزانية التي يريد أن يرجعها إلى خزانة الدولة كي يحصل على حصته منها أو خمسها إذا أرجعها. يدور بكرسيه وينهض واقفا داعيا إياها إلى تناول طعام الغداء معه. يخرجان وملامح الرضى والاطمئنان ترافقهما. تمشي بجانبه واثقة وتتلاشى من أمام أعينها صورة الجرذان...

# الباب الثاني :

# ضفاف ونقوش

# شارب متهدل

أطبق الظلام على الغيطان بشدة، فلا يظهر منها أو على الطرق أي شيء، إلا إذا كان شخص يسير واضعا سيجارة في فمه، فتبدو شعلتها حمراء تدخل في قلب من يراها الرعب أو الفرار، فيحوقل ويستعيذ بالله من كل شيطان رجيم وكل مخلوق شرير يمكن أن "يلبسه" ويخرجه من عداد العاقلين. يضغط زايغ بكعب حذائه على بطن الحمار فيسرع الخطى متنقلا من طريق إلى طريق، متفاديا حفرة أو ماء جعل الطريق الترابي طينا في أحد جوانبه، أو مبتعدا عن مصدر نباح كلب قادم من أمام بيت ما أو من داخل سور بستان ما. كل نباح يجدد في قلبه الخوف، ويذكّره بسهره الليالي خلف الجبل يواصل الحفر بحثا عما يرقد تحته في التليس آمنا سالما الآن. حتى نسمة الهواء التي قد تشتد أحيانا وتحرك فرع شجرة أو نبتة في غيط تقلقه، تذكِّره بالأصوات التي كان يسمعها من باطن الجبل أو من خلف صخرة فيرتعب ظانا أنها من أناس يراقبونه أو من رجال بوليس يهمّون بالقبض عليه، فيحمد الله عندما يدرك أنها حركة كلب أو جريان فأر جبلي وسط النباتات المتيبسة.

كلما ازدادت خطوات الحمار، أحس زايغ بنوع من الاطمئنان، فالطريق إلى دوّار النائب يقصر دوماً، وكلما قصر اقتربت الآلاف من يده. فعندما يصل أمام الدوار، سيكون أحد العبيد أو الخفر في انتظاره، دائراً بعينيه الضيقتين يمينا وشمالاً، ومؤهبا أذنيه ليسمع حتى دبّة النملة. إذا كان هناك ضيوف بالداخل، سيربط الحمار في إحدى الحلقات الحديدية المثبتة في السور من الخارج في أحد أركانه المظلمة وسيُنزِل التليس في الظلام بحرص

مخافة أن تتهشم أنف أو أذن أو إصبع قدم، وسيضعه في الظلام، ثم يدخل به العبد إلى حيث يدخل النائب ويظل معه إلى أن ينصرف الضيوف، ثم يبدءان. أما إذا لم يكن هناك أي ضيف، فسيدخل بحماره حتى يصل إلى السقيفة، فيُترل التليس في أمان، ويأخذ العبد الحمار ليربطه في الحـــوش.

... "الباشا يسلم عليك يا زايغ ومبسوط منك كثيرا". يتردد صدى هذه الكلمات في أذن زايغ فتجري في دمه، وسرعان ما تمتد وتمـــلأ وجهـــه الممتلئ، فتجعله يميل إلى البياض، وكأنها ملاك حارس يتكفل بـــه علـــى الطريق وفي الجبل. فمعنى أن الباشا يتذكره كبير جدا، سيصبح مليـــونيرا بالتأكيد، وسيرشح نفسه لعمودية القرية التي ليس لها عمدة حـــتى الآن، ومادام الباشا مبسوط منه سيساعده بالتأكيد وسيتوسط له عنـــد النـــاس الكبار ليجعلوه العمدة ويصير صاحب الأمر والنهي على كل كـــبير في القرية، وربما ساعده في أن يكون عمدة على القرى المجاورة، يتصرف فيها كيف يشاء، ولن يحتاج إلى الحفر والبحث في الليل، فـــسيبحث في عـــز النهار، لأنه لن يخاف أي أحد، كما أنه لن يتعب نفسه في الحفـــر، بـــل سيجعل الخفر يحفرون بأنفسهم دون أن يأخذوا أي شيء إلا لقمة دسمـــة لهم ولأولادهم.... من حقك يا زايغ، ما أحد معه مثلـــك في بلـــدكم كلها، تنام وتضع ساقا على ساق وترفع حذاءك في وجه كل شخص....

يفيق زايغ على ضوء سيارة آتية من ناحية الدوار، فيفزع وكأنه وقـــع في المصيدة، لكنه سرعان ما يقتل هذا الفزع الذي يمكن أن يـــؤدي بحياتـــه وبالأموال التي رصها في الحفرة المجهزة تحت السرير وعليها باب لا يبين، يشد على لجام الحمار ويديره ناحية الغيط المجاور، مبتعداً عـــن الطريـــق بمسافة لا تسمح لأحد أن يراه عندما يكون ضوء السيارة بالقرب منـــه على الطريق، ولكن عندما تقترب السيارة، يضحك ضـــحكة مكتومـــة

ساخرة، "الله ينيّلك يا مأمور، جعلتني أموت في ثوبي. أحسبك حكومة من خارج البلد،" يقولها في سره، ويهمّ أن ينادي على المأمور الذي يظهر واضحاً في مقدمة السيارة بشاربه المتهدل وعينيه الحائرتين الحمـــراوين، لكن السيارة كانت قد ابتعدت مخلِّفَة رائحة غبار ودخان.

يشد الخفير على أجزاء بندقيته عندما يسمع حركة ما قادمة على الطريق، يرفع صوته بتجهم وخشونة "من؟" يقولها وهو يهم أن يـــضغط علـــى الزناد، "الغالي في التليس" يقولها زايغ وابتسامته لا تصل إلى الخفير، لكن صوته يهدأ ويلين، "أهلاً بالغالي والذي جاء به". ينزل زايغ مـــن علـــى الحمار ويسير نحو المنضرة. يجر الخفير الحمار مـــن اللجـــام ويتجـــه إلى السقيفة، ينادي على شخص ما، فيرد صوت ما من المنـــضرة، يخـــرج شخص ضخم، طويل الشارب، وعندما يرى زايغ تلين ملامحه، يرحب به ويهرع إلى مكان الخفير بعد أن يلقى ماسك فحم الشيشة من يده، ينزلان التليس بحرص ويضعانه في السقيفة على دكة بجوار الحائط. يبدأ أحدهما في فك رباط التليس، لكنه مربوط جيداً لدرجة أن أســـنانه القويـــة لا تستطيع أن تحدث أي أثر في الحبل أو حتى تزحزحه من عقدته، فيخرج مطواة قرن غزال من جيبه ويقطع الحبل الذي يلين تحت ســـن المطـــواة الحادة. يضع أحدهما كلتا يديه في التليس ويدخلهما تمامـــاً لدرجـــة أن طرف التليس يقف عند عنقه، ولولا أن رأسه ضخمة والعمامة زادتهـــا ضخامة، لأدخل رأسه في التليس ليرحب بالغالي القادم الذي لا يجلب معه إلا البحبحة في يد عبد الرحمن بيه فتجرى يده برزق وفير لكل من يعمل عنده.. يضع يده عند قدميّ الغالي، ويسنده على صدره خارجاً به في حنو ورقة ووداعة وكأنه ابنه الوحيد الذي جاء إلى الدنيا بعد طول انتظار....

يرجع زايغ إلى بيته دون أن يقلقه أي شيء، فلا يعبأ بنباح الكلاب، ولا تزعجه أضواء سيارة قادمة من هنا أو هناك، ولا يرتعب من حركـــة في فرع شجرة أو نبتة في أي غيط، بل يجعله صوتها ينتشي ويغني أغنية مرحة بصوت خفيض، لا يرى الحفر في الطريق، كما أن حماره لا تغوص قدماه في العجين الطري الذي تسرَّب إليه ماء من مجرى بجانـــب الطريـــق... عندما يقترب من بلدته، لا يسير إلى مدخل القرية، بل في الطريق الـــذي جاء منه خلف البلد، وسط الغيطان، على حافة مجرى ماء جاف ومنـــه يدلف إلى بيته ويدخل من الباب الخلفي الذي يطل على الغيطان...

يدخل غرفته وهو يحتضن الكيس المليء بـــالآلاف، يـــضغط علـــى زر الكشاف الكهربائي، ينزل برأسه تحت السرير، يرفع الباب، يطمئن على الفتلة الرفيعة التي وضعها فوق الآلاف في الحفرة كي يتأكد أنه لم يعبث في ثروته أحد، يجدها مكانها لم تتزحزح، فيفتح عينيه ليزيد تأكده مـــن وجود الخيط، عندها تسري دماؤه بفرحة متجددة وإحساس دائم بالنمو، يرفع الفتلة، يرص الآلاف فوق الآلاف الأخرى بعد أن يعدَّ كل مـــا في الحفرة، ثم يضع الفتلة مكانها، وينزل الباب في هدوء كي لا يحدث صوتا قد يسمعه شخص ربما يكون مارا بالخارج... بعدها يفتح شباكا مطلا على الشارع، فلا يرى أحدا أو يسمع صوتا، فتزداد ســـعادته وترتـــسم بسمة عريضة على وجهه، فيشعل سيجارة، يصعد السرير، ينـــام علـــى ظهره، يضع رجلا فوق أخرى، ويحرك أصابع قدميه التي يراها كثيرة من خلال الدخان المتطاير، يحس أن السرير مرتفع وأن الحفرة تحتـــه تـــزداد اتساعا وارتفاعا، فيضع عقب السيجارة في طفاية بجوار السرير ويـــسلم نفسه لأحضان نوم ناعم، غير عابئ بشخير زوجته بالداخل.

# هل أعددت مطواتك؟

تنقبض أسارير مجدي فجأة. فينهض فزعا وكأنه أصابه مس من الجن أو أن القمر الذي يمنح أشعته الحانية فتفرد جماها حولهما قد انفجرت فيه قنبلة جعلت نوره نارا مظلمة... "بالله عليك لا تكمل، هذا النوع من الناس يأتي على السيرة. وليس بعيدا أن يحوّلنا المغربي حجارة هنا على الترعة فتتبول علينا الكلاب ليل نهار. وليس بعيدا أن يسحرنا ويمشينا وراءه كما النائمين ويأخذنا ويدبحنا ليفك رَصَدَ كنزٍ في بطن الأرض. هذه الناس ليست خالصة لوجه الله ولا تستبعد منها أن تفعل أي شيء...". فينقبض رمضان. ولكنه يشرد قليلا مع انسياب الماء وحركة السمك التي تعلو أحيانا في جزء ما من الترعة... "وماذا في مجيئه؟ الواحد يتمنى أن يدخل في مغامرة يعيش فيها وتنسيه مشاغله، ماذا سنخسر؟" ينتبه إلى أن الماء بدأ يسكن حول رجليه فجأة وكأنه تجمد وأصبح يهدد كل السمك الذي لا يحتمل هذا التغير المفاجئ غير المحسوب، أو كأن النهر أصبح بركة راكدة. تسري قشعريرة مريرة مخيفة في جسده النحيل فيحوقل ويغمض عينيه كأنه يخاف رؤية شيء على وشك أن يظهر بدون سابق إنذار... "مجدي، أين أنت؟ أحس بشيء غريب"... يحول وجهه نحو مجدي فيجد أنه ينظر إليه في فزع ورجاء وكأنه يستنجد به... "رمضان، اقرصني كي أحس بصحوي".

ماذا ؟ بدأ الفار يلعب في عبي.

هل ترى ما أراه؟

أين؟

انظر هناك، المكان الذي كان الكلب ينبح فيه.

يا رب استر

أربع جمرات من النار، رأسية في حجم إصبع صغير. كل جمرتين بالقرب من بعضهما لا يفصلهما إلا طول شبر طفل صغير. وكل جمرتين تبعدان عن الجمرتين الأخريين بحوالي نصف متر، وكأنهما شخصان غريبان يقومان بحراسة شخص لا يبين.

يسمعان أصوات غريبة غير مفهومة، لغة لا يفهمان منها شيئا، لكنهما يحسان بأصوات تتناقش وتغضب وتهدد، وصوت يأمر. تقترب الأصوات فيهمّان أن يفرا في أي اتجاه... "ألم أقل لك إنهم يأتون على السيرة؟ لو كنا سلكنا سيرة مليون جنيها! هل نحن في أمر الفلوس الآن أم في المصيبة التي وقعت على رؤوسنا؟! لا أستطيع أن أتحرك. ولا أنا. ماذا سنفعل؟ لن نستطيع الفرار...". تختفي الجمرات الأربع، وتهدأ الأصوات إلى أن تصل إلى همهمة خفيضة سرعان ما تتلاشى. لكن فزع مجدي ورمضان لا يتلاشى ولا يرغب حتى في التناقص، وإنما يصر على الزيادة المطردة التي لا يمكنهما أن يفعلا شيئا حيالها. يحاولان أن يجريا في أي اتجاه فلا يقدران ويسقطان على الأرض كأنهما مربوطان بحبال قصيرة غليظة ملفوفة حول وتد طويل يضرب بسِنَّه في باطن أرض تضمه بشدة ولا تتركه يتزحزح عن مكانه أو حتى يفكر في زحزحة نفسه، أرض غيور لا تترك لوتدها

فرصة في أن يتنفس غير زفيرها وعرقها.

يستعيذان بالله من كل شيطان رجيم ومن كل إنس أو جان يربط أرجلهما، فتختفي الجمرات من داخلهما ويبدأان في الحركة. يسمعان صوت حركة أقدام قريبة وشبح شخص يقترب منهما تسبقه نحنحته أو كحته كأنه ضيف يستأذن في دخول بيت. يستمر في النحنحة وكأن الترعة والأرض ملك لهما ولا يريد الشبح أن يدخل إلا بعد الاستئذان، أو كأنهما نساء ويصر القادم على النحنحة حتى تعتدل النائمة أو تغطي نفسها من انزاح ثوبها عن جسمها قليلا أو تدخل غرفة داخلية من لا يحق لها أن تتكشف على الغريب.

يبدو أنه ضيف.

ويمكن أن يكون تائها ولا يجد مكانا يبات فيها.

يتنحنحان نحنحة مرحبة فيها قدر من الود والألفة وكأنهما يدعوان الغريب للكشف عن نفسه وإزالة ما في نفسه من حرج أو تردد. ترد عليهما نحنحة فيها قدر من الخضوع والرجاء.

غريب تاه في السكة (يقولها دون أن يلقي السلام ودون أن تبدر من فمه غيرها).

أهلا بك يا عم، البلد كلها بيتك (يقولها رمضان دون تردد أو محاولة للتوقف وتدير الأمر والتحقق من هوية القادم. أما مجدي فتظهر من صوته علامات تردد، وكأن فارق السن بينه وبين رمضان يلعب دورا في رد فعل كل منهما).

رجل يوحي صوته أنه تجاوز الخمسين. لا تظهر ملامحه جيدا في الظلام الذي يبدو كثيفا، فقط عيناه تبرقان ببريق غريب وكأنهما مصباحان ذوا ضوء خافت. يبدو الغريب كتلة سوداء ضخمة نوعا. تنضح منه رائحة عطرية من نوع ما، يبدو أنه عطر فريد، رائحته قوية كأنه سكب على جسمه زجاجة كاملة منذ فترة قصيرة.

من يجيء طالبا الضيافة لا يُرَدّ مهما كان. رجاء فاح من لسان الغريب: "أريد المبيت"، يقولها والسحر الغريب في عينيه يتحول إلى شيء مألوف فيه نفحة من علامات الطيبين الخيرين. يهمس رمضان في أذن مجدي: "والله عيب، أتريد أن يقول الناس عنَّا هؤلاء ناس لا يعرفون الأصول؟" فيرد على همسه بهمس: "الأصول من اختراعنا، لكنني متخوف". فيشده رمضان من كمه ويأخذه جانبا: "الرجل لم يصدر منه سوء". "قد يكون خوفك بلا داع، والماء يكذَب الغطاس". فيرد مجدي دون أن يتخلص تماما من نبرة شكه: "لا توجد مشكله، الرجل يبات عندنا والصباح رباح". "الليل غريب يا أبا أيوب والواحد يمكن أن يكون مكانه".

يتجهان إلى الغريب. لا يسألانه عن أي شيء، فقط يعرفانه بنفسيهما، فيعرفهما بنفسه: "محمد المغربي، رجل على باب الله". عبارة قصيرة تخرج مخضبة بنبرات شتى، لكنها لا ترجّح نبرة على أخرى أو تصرّح بشيء. فقط ترسب داخلهما إحساسا مبهما بخطأ ظنهما أو جهلهما أو سذاجتهما، فيتحسس كل منهما مطواة قرن الغزال في جيبه ويستعدان.

# ندّاهة

مستلقيا على ظهره فوق كومة الزلط أمام بيته، يتأمل مصباح العـــامود الكهربائي فوقه، يتكاثر الناموس حول المصباح. تتطاير فراشة حول رأسه، يهشها بيده، تبتعد، تصعد للمصباح، تتطاير حوله، تهاجم الناموس، تريد أن تتوحد مع المصباح، تدور، يسلب لبها الضوء، تندفع فجأة، تـــسقط قتيلة، يسقط قلبه بين رجليه، دقاته يسمعها عالية، تكاد تطغى على نباح الكلاب ونعيق الضفادع حوله ما الذي حدث؟ شيء خطير لأحد أقربائي بالتأكيد!! إنني هكذا، يدق قلبي عاليا أثناء المصائب... ينهض فزعـــا، يدخل البيت ... أمي وإخوتي وأخواتي الصغار تحكي لهم، هادئين. "أين أبي؟" "تعرف أنه مازال في الغيط يروي الزرع!! كان ينتظرك أن تذهب لتساعده"... ينظر إليها بطرف عينيه وكأنها قالت كلامـــا لا يغتفـــر، ويخرج ليضع البردعة على الحمار، ويعدو... لابد أن أبي حـــدثت لـــه مصيبة، نعم إنه أبي، ذلك الكلب لابد قتله، يتحرش به دائما، أحضر له أبي الشيخ عبد الحميد جمعة ليقيس الأرض ويبين لكل واحد حـــدوده، أشهده أبي على ما يطمع فيه جارنا... حفرة في الطريق، يجفل الحمار، لا يريد أن يخطوها، يضربه، يجفل أكثر، تهتز البردعة، يقع، يسير بعيدا عن الحفرة، يركب... يريد أن يوسِّع أرضه على حسابنا، لابد أنه جادل أبي، وأبي لا يقبل المداورة ولابد أنه ردّه مباشرة... كلـــب ينـــبح، يـــسرع

الحمار... انطلق ثورا هائجا، لابد أنه قتل أبي، آه يا أبي، كم أفتقدك! ألا ترى بؤسي وعجزي بدونك؟ كنتَ أصلا وما أنا سوى فرع صـــغير لا أساوي شيئا بدون جذرك!... يميل الحمار برأسه، يلتهم بعض الحشائش من الجانب الأيمن من الطريق... لابد أن أستردَّكَ، أزرع سيرتك في كل الفصول، وأبثّ صوتك في كل الأصوات علّها تتذكر حكمتك. ومن لا يسمع صوتك فليتحمل ذنب نفسه! يزيد ضرب الحمار، فيكبو ويسقط على الأرض، يحاول عبثا أن ينهضه فيتركه ويجري، ينهض الحمار ويفـــر راجعا إلى البيت عليّ أن أتمسك بصوتك أكثر! لن أستسلم لكل تلـــك الأصوات التي تطنّ في أذني وتجعلني أحس بأني غريب ولا امتداد لصوتك، صوتك هو الحلّ. ما هذا الماء الذي يهاجم قدميّ؟! هل وصـــل بالجـــار اللعين الفجور إلى هذا الحد؟ يسقي زرعنا بماء ماكينته؟! حسبي الله ونعم الوكيل نور يشع من بعيد... نور في غيطنا، أيكون ذلك الرجل اللعين قد حرق أبي بعدما قتله وأخذ يستدفئ على النار!!!!

- أجئت يا مانع؟

يفزع، يتراجع بسرعة ندّاهة

- من أنت؟

- ماذا جرى لك يا ولدي، أنا أبوك!!!

- لا... أنت لست أبي.

يصرخ بأعلى صوته، ويسقط

# سادية

"هات قلبي وروح"، الله يا أصالة، "روح وهات قلبي"، موسيقى أصالة تستحوذ على زناد فكرك، ها هي انتقلت إلى أغنية أخرى، "ناس ظلمها الغريب"، النصيب، أي ظلم يا ترى ذلك الذي يجعلها تبدو متعثرة الآن، جميلة "متعثرة" هذه، وكأن زميلتك كانت تتحدث عنها، من هي المتعثرة؟ آه، آآآآآآآآآآآآآه، لا، لن أظلمك يا حبيبة، سأحققك مهما كان، يا عم حقق نفسك أولا!، مهما تآمرت عليّ الظروف والضغوط لأتركك، إن تركتك لا أستحقك، هل يتخلى أحد عمن يحبه؟ كثيرون هم، لا حصر لهم، اهدأ قليلا، دعني أكتب هذه الجمل التي تتعلق برقبة قلمي توسلا، إذا كان هذا الـ "من" من نفسك وعقلك و"نخاشيش" وجدانك الذي شكلته على هواك طيلة سنوات مرت وستجيء بعيدا عن كل تلك الأشكال، إذا ماذا؟ كيف أكمل الجملة وأنت تعلّق هكذا، لقد بعثرت عقد القلم فانخرطت الكلمات دون خبر، دون خبر أم جواب شرط؟ "روح يا ندم بعيد"، لا، لن يكون هناك ألم، ولن يقبل الهوان، من هو؟ يا عم اسمع أصالة في هدوء، لن أدع نفسي للحظة التي "تصعب" فيها عليّ، تراودك رغبة في نشوة انفعالك أو تفاعلك – حلوة هذه، "الغناء التفاعلي"! – أن تلقي كوب الشاي الذي بيدك عرض المكتبة أمامك – ها أنت عدت إليك، عاش الانفعال صديق الحياة، عاش عاش، تراودك كما كنت تلقيها عرض الحائط فيما مضى من شدة وجدك أو وحدتك أو أحاسيسك، لكن هل تهون عليك كتبك التي كتبتها أو اشتريتها؟ كيف بالله تهون وقد كانت ومازالت "معظم" شيء في هذي

الحياة القريبة البعيدة التي تحاول الإمساك بطرفها لتهديها للقلـــم هيامـــا صوفيا يخرجه فوق الحدود، يعلو به في المقامات، يفـــتح مجــراه علـــى الكلمات لتسبح فيه، هل كنت أحكي "معك" عن أي شيء منذ يومين؟

...

عدتَ إلى عادتك القديمة في اصطياد الكلمات من قاع النغم... يا سيدتي لم أقل لك إن العذاب سيهون، لم أطلب منك أن تصدّقي شيئا، أعمرك الذي راح أم عمري أم عمر من؟ لم أضيّع شيئا، ذنبك أنـــك تخاذلـــت واستسلمت لكلام أمك التي طلبت منك البعاد، أوجع البعاد أم الابتعاد؟ فاستجبتِ لها وضحيتِ بنفسك، يا لها من تضحية! تحملي يـــا صـــاحبة الأضحياتَ تحملي! أتظنين نفسك شهيدة؟ ها أنت تتعذبين، قد تلـــومين نفسك، في سرك قد تلومينها، لابد أن تحافظي على المظهر الاجتمـــاعي طبعا، ربما تلعنين أمك الآن، ربما تصبين غضبك على ضعفك، ربمـــا لا يستطيع عقلك تدبر موقفك أصلا، نقد الذات، علـــى الماضـــي، علـــى الحاضر، غضب، غضب وتبكين نواحا، يعاند الكمبيوتر بكاءك، ويضع خطا أحمر، ربما ليكتفي بالغضب المحتبس في عينيك المكابرتين، اغـــضبي كما تشائين، فلا أنت رائعة أبدا، إذ أنك لا تثورين، أهي المُحَافَظَـــة أم حافظة النقود؟ معذرة يا عم نزار، "اغضب"، "تشرين نواح"[10]، لا تطلبين مني السكوت، هل ضيع عمرينا غيرك؟ لا تلومي أحدا، قد تكون محاولة استعادة "الزمن المفقود" مستحيلة، ألا تذكرين السياق؟ هل تعرفين معنى السياق؟ هل عندك وعي يا سيدتي؟ عم نزار يا عم نزار سِـــكّتُنا كَلْهَـــا

---

[10] قصيدة "اغضب" التي تتغنى بها أصالة نصري من كلمات نزار قباني. وربما كان لنزار قباني قصيدة أخرى بها بيت يقول: "غضب غضب وتشرين نواح"، ربما.

انتظار، أتقولين أنك ارتضيت الآن أن ترضين بما يرضاه الزمن؟ تقـــولين أنك ستجعلين الزمن يتحكم فيك؟ ما بك يا أصالة؟ وهل تقبلين مـــرة أخرى أن تتركي نفسك دمية يحركها من يشاء كما يهـــوى، تحركهـــا أمك، يحركها الزمن، "حسي على دمك" مرة واحدة في حياتك، انهضي، دافعي عن ذاتك، عن وجودك، عن "أنت"، عن كل ما يحقق لك التحقق والوجود كما تشائين في هذه الحياة، معذرة، نسيت أنـــك لا تفهمـــين الشعر، أتذكرين بمقعد الجامعة مجلسنا؟[11] أتذكرين "الخـــواطر" الـــتي لم تفهمينها؟ أتذكرين المظهر الاجتماعي؟ سبحانه، لا تريدين أن يقرأ أحد أسمك في قصصي وأشعاري، هل صرحت به أصلا أو كـــاملا، أم تـــراه غرور أنثى اكتفت بالوقوف على أعتاب الغـــرور؟ معـــذرة، كيـــف لا تفهمين الشعر؟ اسمها حياتك أنت، كيف تدعين غيرك — أتعرفين معـــنى "تدعين" أم أغيرها إلى تتركين أو حتى "تسيبي"؟ - يشكلها لـــك علـــى هواه؟ كنت روحا متوردة بالحب، كنت، عندما ترين نظـــرات عـــيني منصبّة عليك، تتألقين جمالا، تينعين حياة، تمعنين في معاودة النظر، كـــي تتأكدي أنك كل شيء للأبد، كل ما بيدي فعلته، لم أكتفي بيدك، بـــل طلبت قلبك، طلبتك أنت كما أنت لتكوني أنت، ألم تردي على مبادرتي بمبادرة مثلها؟ أهو القطار مرة أخرى يعود مـــن "يبـــدو أن"[12]؟ قطـــار الجنوب، أم، قطار الشمال، "خلينا أصدقاء أحسن"، هل يكـــون أحـــد صديقا لأحد لا يحبه؟ أم أنك تكتفين بالوقوف على أعتاب اللفظ، ربمـــا لأنك درست الظاهراتية، ربما، من بيده أن يقطع؟ لا أقول ذلك توبيخا،

[11] ربما كان ذلك تقاطعا مع أغنية محمد عبد الوهاب التي يقول فيها "أتذكرين بشط النيل مجلسنا؟"

[12] عنوان قصة للمؤلف.

أو ... أو ماذا؟ هناك لفظ يدل على التشفي، آه، تذكرته، أو شماتة، هل يشمت أحد في نفسه؟ ما ذنبك حتى تعيشين كل هـذي السنوات في عذاب؟ حيرة؟ وحدة؟ كل ما ينتمي لمفردات هذا الحقل، طبعا لا تحبين الحقل وتفضلين شقق المدن! كيف بالله عليك تقصرين في حق نفسك هكذا؟ هل ستعيشين حياتك مرتين؟ إنها حياة واحدة يا ... تذكرت، لا تحبين ذكر اسمك، منتهى التضحية؟ سيجيء قارئ ويأوله على غيرك! بِمَ أخاطبك؟ هل أصبح هناك متسع من السياق لأقول حبيبة؟ يا له من سياق لعين، سياق يفرض عليك – لا بأس، يرضخ المرء لأشياء أحيانا، وفي النهاية هو سياق – مراعاة لمن لا تريد أن توقع بهم ضررا أو أذى – دعه يفرض عليك الآن أن تتخلى عن مواطن الحميمية والروح في حياتك، حميمية تروح، حميمية تجيء، الحميمية دول، فلتكن هنا مادامت لا توجد تلك الدول في السلطانية، تحت القبة ماذا؟ تحت القبة عجوز – يسمون ذلك – أهو التخلي؟ أم هو الرضوخ؟ - نكران الذات، يستحمدونه، شيء جميل يحمد عليه المرء، هكذا يقول المعجم، أم تراه يخلط بين الحميمية والأعجمية؟ لماذا إذن يضع الكمبيوتر خطا أحمر تحت كل مواطن الحميمية؟ أم تراها نظرية المؤامرة التي يقولون عنها؟ من يتآمر على من؟ يعلمني الكمبيوتر الآن أنني تلقيت رسالة من الدكتور عماد، مقالة "لماذا لا نريد أن نفهم؟" لراجي عنايت، أطالع بدايتها: "لماذا لا نريد الاعتراف بأن الأسس التي قامت عليها حياتنا قد تغيرت، وأن الخبرات التي توصلنا إليها بعد جهد، على مدى أعمارنا، لم تعد صالحة للتعامل مع الحياة الجديدة التي يمضي إليها البشر؟ .. لماذا لا نريد الإقرار بأن فشلنا في الوصول إلى حلول لمشاكل حياتنا، وسبل لإعادة بناء مؤسساتنا، لا يرجع

إلى نقص في الذكاء، أو ضعف في الخبرات ..إنما مرجعه إلى أننا لم نتوصّل بعد إلى المنهج المناسب للتعامل مع التغيرات الكبرى المتسارعة التي نمرّ بها .. ولم نتّفق على المنهج الذي سيتيح لنا أن نرسم رؤية مستقبلية حقيقية لمصر." ربما كان الدكتور عماد يدرك أنني أكتب مسودة القصة على الكمبيوتر الآن، ربما، وعلى كل فهي علامة، لا بأس، طبعا سأقرأ باقي المقالة فيما بعد، لا أريد أن يلهيني شيء عن الكتابة الآن، ماذا كنا نقول؟ آه، نعم قلت لك يا متأصِّلة فيّ "احنا لبعض"[13]، دققت على بابك، وسمحتِ ثم منعتِ، فعلا لم تشرحي، لكن سياق كلامك كان واضحا – قد يختلف هذا السياق – يا عم قل لهم إنك تناوش أغنية أصالة – عن السياق الذي نتحدث عنه دوما – إرضاء لأمك لم تقلي "إحنا لبعض"، هل فكرتِ في مبرراتها؟ لماذا لم تحكِّمي ضميرك؟ "كيف تنسى الليالي – آسف، النهارات – ولا تحكِّم ضميرك؟"[14] يبدو أن أصالة "تضعك في دماغها" طوال هذه الأغنيات، وكأنها تحاصرك، تحاول أن توقظ ضميرك، تضيف إلى عذاباتك عذابات أخرى، لم تدار إنها تحب، لم تتهاون في إعلانه مهما كان الأمر، يبدو أن كلمة "الأمر" أكثر دلالة من "النتائج"، يبدو أنك لا تفهمين قولا، فها هي صورتك في مخيلتي جامدة، لا تعرف الحياة، استحثك فلا تتحركين، استفزك فلا تركنين إلا إلى استسلام يعتريك، يبدو أنك لا تَرْني لشيء، لا تتطلعين لسياق غير سياقك، لا تودين السفر، فلأغلق الكمبيوتر الآن وأذهب لاستلام تأشيرة السفر، سلام يا خانعة.

---

[13] من أغنية لأصالة نصري التي تتراص ملفات أغانيها على برنامج الريال بلاير على الكمبيوتر أثناء الكتابة.

[14] من أغنية أخرى باللهجة الخليجية لأصالة نصري.

# ظلام

أيخشى، بل أيخشون، شعلة بروميثيوس أم يخاف علي الظـــلام المتجمـــد داخله ويسري في عروقه ودمه الثلجي أن يتفتت؟ أيرتدى عباءة النـــور المخادع والمخدوع في آن وتلك الشعلة البشرية ستثبت حجريته وغباءه؟ ماذا يظن بذلك العقل؟ أيريده أن ينطبق مع ظلام عـــصور أولى تعلـــن ميلادها من جديد بكل صلف وغرور؟ لماذا ذلك الإجحاف المنـــسوجة منه عباءته؟ أيريد كل من بعده أن يخرج من معطفه فقـــط وإلا شـــجبه وأدانه وسحقه؟ قال بكل سلاطته المندثرة خلف براويز الحكمة المراوغـــة "لا ". ووافق جزء مخاتل من مجمع الكرادلة: "لا يمكن أن يدخل هنا ، سيـــــ..." هنا، هنالك حيث يريدون المكان أن ينحصر وينغلق عليهم، فترتع ثلوجهم وتطفو قمماً على جبال الأوليمب تحاول أن تطفئ كـــل شعلة تتفجر نوراً وناراً برغم الأغلال والصقر الذي ينهش في كبدها ليل نهار. رمادهم الغبي، عيونهم الكريستالية، صلفهم المبنى في الهواء. انطفئ يا شعلة منطفئة.

ساورته الشكوك في معناهم ومغزى نفسه لكنه عاد وآمن بنفسه وبكـــل النفوس التي تريد أن تشتعل. ألقى النول من يديه. لا يريد أن يغزل كفنه ويفكه في الصباح ليغزله في المساء مرة أخرى. أتريد؟ لا. كيف أفعل؟ لا، هم الذين يجب أن يغزلوا أكفانهم، فإن كفنهم ميت وهم ميتون. لا يريد

أن يرفع الصخرة ويلقيها ليرفعها مرة أخرى. الصخرة من صنع أيديهم. أتريد أن ..؟ نعم. أريد أن أحطمها وأقوِّى بأجزائها دورات المياه. لا. هذه ليست فكرة جيدة: ستجلب الظلام الداكن والبرودة الغبية حيث سيصاب الإنسان بالنزلة وهو مسلم ظهره، آمناً لها. وربما حدثت له أشياء أخرى داخلها، من يدرى؟!

ساوم القلم علي الاستمرار في الكتابة، فدموعه التي تغلي داخله تخفف الحبر. ابك خارجك يا قلم. ازرف الحبر علي الورق. فالحروف بانصهارها واكتوائها ستتشكل كلمات ذات معنى تسحق لامعناهم وتبيد العدم فيهم وفي كلامهم. أعرف أن هذه الكلمات تغيظهم وسيقولون مرة أخرى "لا"....."كيف يدخل بيننا. عيناه شاردتان. لا تريدان أن تستقرا علينا. ينظر إلينا بإنكار.." وقّعوا علي كلامهم في التقرير! "لا. تلغى المسابقة والأعمال المقدمة". أكنتم تظنون أنها مُقَدَّمَة لكي تتوقف؟ أين يوجد التقدم إذن؟ وأين توجد الحركة؟ كيف يُقتل السكون إن لم يُعدم هكذا؟ أتتيمنون بأنفسكم وتدينون من يتيسر بنفسه؟ أتبتغون من يصالحكم؟ لا . الصلح ليس بخير. لا تصالح، سيدي، ولا تهادنهم.

علامات بارزة في سماء الظلام، من صنع نفسها، تدكّن لونها وتطليه بكل أنواع القار وهي لا تدري أنها أحجار من خلطة نفسها، تماثيل، لكنها لا تريد أن تحطم نفسها. لابد ستتحطم. الكبير قادم. أو أنه قدم وهو الآن في مرحلة العلاج ورأب الصدع. أترى يا سيدي المفارقة؟ نعم أرى

وأحس. إنها تخاف الموج الهادر أن يقتحمها فيفتتها وتنمحي آثارها تحت سيول الأمطار في كثبانها الرملية. وتصبح شيئاً غير مذكور: لاشيء كما هي دائما.

المجد لك يا دنقل من قلت لا في وجه من قالوا نعم. أتعتقد أنهم يستوعبونك؟ ربما لا يعرفون اسمك، فجدرانهم الصلدة تحجب أشعتك عنهم. ربما عرفوك،لكنهم تجاهلوك وأرادوا أن يجهّلوك. وربما فهموك يا سيدي، لكنهم حرّفوا كلامك من بعد ما عقلوه. زوّروا تاريخك في عقول أنفسهم التي ربما كانت في البدء كلمة لها معنى لكنهم حرّفوا حروفها لتصبح "لكمة" في وجه كل من يريد أن يقول المجد لك واللعنة "لهم". هم الذين يساومون الزمن علي حركته ويماطلون الأيام علي دورانها في فلك حياة حيه يقظة تريد أن تقول: "أنا هنا" ولكنهم ليسوا بأبناء حلال: يريدون الجاه وكثرة المال المكتتر في صدورهم العفنة. لا. لا تساوم. لا تبتئس: فالعزة للشعلة والمجد للنار والدمار للعرش الزائف والحريق للقلوب الصدئة والعقول النتنة.

داروا في فلك ردود أفعالهم المظلمة واستمروا في محاولات إقناعهم الزائف. لا تستسلم لهم. أعرفك جيداً. وكيف لا أعرفك؟ تتوحد معي في أوقات وأوقات أخرى تنسحب خارجاً لتعود أقوى وتمدني بقوة مؤمنة بنفسها وبكل النفوس التي تريد أن تصير كلمة من الكلمات. يلوون ألسنتهم بأطراف الكلام ليصير ملاماً وملكاً جبروتي البطش يستخدم الجامع والمجمع والجامعة ضراراً وكفراً بكل الشعلات والنور والنار. لا تخضع لجبروتهم

فالمجد لبروميثيوس ولأولاده وأحفاده وكل من ينتمي تحت لوائه. لا تبتئس بالصقور التي وظّفوها لتنقر في أكبادك أنت وأصدقائك. دارت رحـــاهم وطحنتك وينوون أن يخبزوك ويلوكوك بأسنانهم الحديدية. لا تتراجــع . إنك لن تنمحي، فأنت روح سرمدية خالــدة في أرجــاء الــصفحات والكلمات. ألا يكفيك جلساتك في المقهى مع زملائك وأصــدقائك في القلم الذي أقلم نفسه علي تقليم الزيف ولعن موائد الآلهة!!

أداروا حوارهم في مشاهد سينمائية هزلية تحرك شريطها آلــة يــديرها غباؤهم، وعنادهم الذي اشتقوا لأنفسهم منه "عدن" يمرحون فيه ويحتمون به. يا عيون الرنو والغد والطموح والتطلع! يريدون أن يقتلــوك معــي بنفس الأسلحة ونفس الحيل المتجبرة؟ ألا يعرفون أنني أعشقك؟ تعال يا حروفي وتراقصي. ابتعدي واجمعي الرحيق والترياق. تشكّلي في أي شيء شئت، في أي شكل أردت، في أي نص استهويت، في أي كتابة خلقت. لك المجد. المجد الأسود في عيونهم يناديك نحو الأعمق. ولكنني أعرف أن عندك المركبة والزورق ونعرف الشطوط التي نريد أن نرسو عليها.

ماذا تفعل؟ أهو محاولة لتخفيف الألم؟ ماذا تفعل أنت؟ أهو هـــروب في كتابة رومانسية زائفة تأله أبطالاً ليس لهم وجود فعلي؟ وجودهم فقـــط زائف يسير إلي زوال بفعل ميكانزمات تفكيرهم الغبي؟ ماذا تفعلان أنتما "الاثنين"؟ كفا عن هذه الشوشرة. أنني أرغب في أن أغازل معـــشوقتي، تجتاحني شهوة فيها وتوحد كامل بها. أتستلذ الكتابة؟ أعرفك نـــشوتك وأنت ترى الكلمات ترتفع شاهقة على أرض النص أمام عينيك.

استمر يا سيدي. فليباركك حبرك ولتمجدك حركاتك وكلماتك. ولا تخف، فكلهم دمى يحركها غباؤهم. ولكن "أنفسهم" لا تريد أن تخرج من بيوتهم في نهاية المسرحية لتبدأ الحياة. لا يدركون مثل هذا الأشـياء فإنهم مجرد أشباح للماضي السحيق بظلامه المتراكم في طياته. يريدون أن يُفْزِعُوا من ؟ كذب من قال إنهم شياطين. أأنا الشيطان؟ إذن المجد لــك! المجد لمن؟ لا تبتغي المجد. أحس بك. تبتغي فقط الوجــود والتحقــق..لا يضبطون المشاهد جيداً، انظر! الإضاءة زائدة تمحي حــتى أشــكالهم، أصواتهم فقط في دائرة الإدراك. الأصوات قوية كأنها تنطق في مــسرحية ميلودرامية شاجية تستدر تعاطف لجنة التحكيم وتستجدى استثارتها.

أجزاء الصورة غير مضبوطة، تسمّع! أصواتهم لا تحافظ علــي وحــدة الخطاب. انظر! أنظر ماذا يا صديقي؟ منظرهم يجذب الانتباه مــن أول وهلة. رؤوسهم صغيرة جداً. أجسادهم منتفخة ومتضخمة. مــا هــذه الأشياء التي تحت الكراسي؟ أهي فضلات؟يبدو ذلك، دقق جيداً.نعم هي فضلات. ما هذا الذي تفعله يا صديقي؟ إنهم لا يستأهلون كــل هــذا الجهد. أتجهد قلمك في أوصاف غبية؟ ألا يكفيك أنهم هم أنفسهم أغبياء؟ أتريد أن تملأ الصفحات أيضاً بالغباء؟ أنجحوا في أن يصيروك غبياً مثلهم؟ تصف غباءهم بكل تفصيلاته الغبية؟ ارجع يا صديقي! وفر جهدك وانو السفر في أدغال الصفحات تستكشف بقلمك أسرار الأسرار. إنهم.. يبدو أنك علي حق يا صديقي، يجب أن...

# إظلام

خطواته لا تتعدى بضعة سنتيمترات. يقاوم السقوط وهو يصعد الانحدار الترابي في الطريق. الشمس بلونها الدامي لم تتوسط السماء بعد. يتعجب: كيف تتحمل العمارات المبنية على جانبيه الانحدار؟!!! مازال على بدء محاضرات اليوم وقت قد يصل فيه. نفير العربات وهي تغدو وتروح فوق الكوبري أمامه يزيده استرسالا في أفكاره وأحاسيسه. لا يمنعه من الاسترسال خواء بطنه ولا نومه المجهض الليلة الماضية.

***

بينما هو منهمك في مذاكرته بعد منتصف الليل، سمع خبطات قوية على باب حجرته. لولا أنه جرى بسرعة وفتحه، لانكسر.... دخلت عيون كثيرة وأياد وأرجل تعبث بمحتويات غرفته: قلبت كتبه وأدواته. ألقت بالمرتبة من على السرير، وبالألواح الخشبية ورائها. عبثت بدرج المنضدة الصغير. نبشت محتوياته: الأقلام والدواة والدباسة وألبوم الصور القديم وخطاب أرسله له أحد أقرباؤه من القاهرة و... فتشت الكتب. قُرأ الخطاب إلى آخر سطر. وقف مفتوح الفم لا يستطيع أن يفعل شيئا. سكبت الأيادي وابور الجاز ذا الشرائط لعل شيئا يكون بداخله. أُخرجت الصور من الألبوم وتفحصتها العيون: تأملت صور أمه وإخوته وأخواته، وعندما لم تجد شيئا تريده، ألقت بها على الأرض. وقع بعضها على الجاز. كل عين قرأت الخطاب مرات.

لم يستطع أن يفسر أي شيء. خيوط الأفكار تواردت على ذهنه، يسحب بعضها بعضا إلى أن وصلت إلى ليلة زفاف أخيه. فبعدما دخل أخوه شقته وخلا بعروسه، خرج هو إلى الشارع عله يجد تاكسيا يوصله إلى سكنه الجديد أو بالأحرى غرفته الجديدة... وجد نفسه في بوكس ألقى به في غرفة ضيقة ومظلمة تتخللها، أحيانا من بين أسياخ الباب، بعض الأشعة المتسللة من لمبة كهربائية بعيدة. جلس لا يدري ماذا يفعل، بل لا يفهم ما يحدث... وجد أناسا يدخلون عليه من حين لآخر: يجلسون بجواره ولا يدرون ماذا يفعلون.

قلبه يكتوي بروائح عفنة زنخة تنبعث من أحد أركان الغرفة. لا يوجد أي شيء يبعث على السرور أو حتى يدل على قرب الفرج: لا شباك أو دورة مياه أو حتى حنفية للشرب. منبعثة إلى أنوفهم الرائحة الزنخة المنتشرة في كل سنتيمترات الغرفة. الهواء راكد، وكثرة الأنفاس والأجساد ألهبته.

تساءل: هل العالم في هذه الغرفة أم خارجها؟!!!

لم تعد الغرفة تحتمل القادمين الجدد: إذا نام منهم جزء على البلاط، لم يستطع الجزء الآخر حتى أن يقعد منكمشا ضاما أرجله. متكئا على أحد الجدران، خلع حذاءه، وضعه بجانب رأسه وحاول أن ينام واقفا... كلما حاول أن يغفو، أيقظه صرير الباب الذي يفتح ليدخل بشر جدد.

وهو يحاول أن يتصيد بعض خيوط النوم، وجد أحد زملاءه يفتح سوستة بنطاله ويترك لبوله العنان. فتنقلب المياه الراكدة في الجردل البلاستيكي

أسفله رأسا على عقب، وتنبعث في الغرفة رائحة قاتلة. يضطر كل واحد منهم أن يسد أنفه حتى بكم قميصه.

لم يجدوا مخرجا إلا الكلام والنكات الساخرة والضحكات المستهزئة بكل شيء. علت الضحكات الحزينة... لم يسترسلوا فيها. فصوت أطل من بين الأسياخ الصدئة في أعلى الباب سبَّهم، بل هددهم.... ظل وقتها أربع وعشرين ساعة لم يدخل بطنه غير المرارة والألم و...

عندما خرج إلى الشارع، فتح سوستة بنطاله، أفرغ مثانته على الإسفلت، جرى وهو يقهقه ويكركر. لم يلتفت إلى العيون التي تنظر إليه باستنكار.

***

خرجت الأيادي والأعين والأرجل. لم يفق من ذهوله إلا والباب يصفق بعنف. نظر إلى أشياءه المبعثرة هنا وهناك. وجد قاموسه ملقى على الجاز. رفعه بسرعة ليتأكد من وجود نقوده بداخله.... لم يجد شيئا. همّ أن يصرخ. لكن العيون الحجرية المتفرسة من السقف الأسمنتي أخرسته... لم يستطع حتى أن يعود إلى المذاكرة أو يرتب محتويات غرفته. نام على المرتبة وهي ملقاة على الأرض. انبعثت إلى أنفه رائحة الجاز زنخة. لم يحس برغبة في أي شيء إلا أن يترك المصباح مضاء ويتأمل فراغ الغرفة، بعد أن سحب السرير ووضعه خلف الباب الذي أوصده جيدا.

# أراغب عنّا ؟!

ورث الفتى الصبر ولكنه لم يرث التكاسل أو التخاذل. انطلق عبر الحدود المرئية ووغير المرئية يبحث عن .. أحلامه، ويحاول أن .. يمسك .. بأشياء عزيزة عليه. أحس بالبتر عندما قذفت به الأم خارج رحمها- الذي ربما لم يكن له وجود- ووجد نفسه في الخلاء والعراء، فلا النجوم الشاحبة في سماء تدفئه، ولا الريح المنسّمة تزرع في قلبه الانتشاء أو حتى تنفس الصعداء.

علت الأمواج ... تقاذفته ... فالسوائل المماهة لا تجعله حتى يحس بطعم العوم المتحدى، ولا هي تجعله يحافظ علي اتزانه واستكمال طاقاته لتفادي الغرق أو حتى الإحساس بطعمه. (ضربتني الأيادي غير المنظورة، تلصصت عليّ العيون واسترقت النظر، خلعت ملابسي ودققت، طعنتني الخناجر المتحجرة، جمعت خيوط في أماكن لامرئية ولكنها محسوسة، وضفرت حبال سميكة لفت حولي .. بطاقتي سرقت مني - لا أدرى كيف. أتكون ذرات الهواء محملة بمواد كيميائية جعلتها تتحلل واحتوتها داخلها، أم كونتها مرة أخرى وسلمتها لمكان سري غير مكتشف لنا بعد؟)

ورث الفتى الصبر ولكنني لم أرث الجمود والعدم.

- من جاء بك إلي هنا.

- جئت أبحث عن نفسي.

ما معنى كلمة "نفسي" هذه التي تقولها؟

- "نفسي" يعني "أنا".

أتعرّف الشيء بشيء أصعب منه؟! الويل لك.

قال ذلك الصوت بمداعباته المعهودة وغنائيته الرقيقة دون أن يمتد سوطه:

" لسوع لسوع واوع يفلسع

اضرب اشتم وإياك ترحم "

فلم ترحم السياط و لم تذرف الدمع الشتائم، وحوصر في ركن ضيق لا يجد حتى ذرة هواء نصف نظيفة يستنشقها. كيف أحلم بذرة هواء حتى ربع نظيفة والمكان ملئ بالقاذورات وفضلاتهم؟!!

ورث الفتى الصبر، ولكنه لم يمضغ طعم الصبار إلا الآن. (لم أعرف التجهيل وألمسه وأحسه إلا في تلك الأيام المستطيلة في عمق الزمن والزمن صدى لكتب عطنة تزكم خلايا المخ.)

فقد الفتى إيمانه بالوراثة والتوريث عندما رأى الحقيقة منومة في حضن "قمر" ممهور بـ "لا تقترب" وعنوان جانبي "اسجد" وأنا لا أستطيع أن أقترب أو أبتعد ولا تستطيع أنت أيضا ، فكلنا موجودون فيها وهى جزء لا يتجزأ مني أو منك.

صمت عقله للحظات يحاول أن يستجمع فيها ملامح كان يعرفها، باءت محاولاته بالفشل، استشرت المرارة في روحه، شعر بأنه يتضاءل ويتباعد عن مركز الدائرة التي ربما لم تكن إلا وهم داخلي:

- ما معنى كلمة "نفسي" التي نطقتها؟! أتتعالم في هذه الحضرة؟

- نفسي يعني وجودي، ذاتي، تحققي، تكويني، هويتي...

- سجل هذه الأسماء كي نستجوبه فيها.

(سجلت الأسماء، كتبت بخط أسود كبير وسهم متعمق في أحشاء كل كلمة منها. غصة في لساني، محاولات الرد والتفسير عقيمة، أممت أفكاري، صليت بها في محراب عقلي وأحاسيسه، دنياي وآخرته، آسف آخرتي. أحسست بأن نهايتي اقتربت/ابتعدت. كيف أستسلم؟! الصبر مفتاح الظلمة والظلمة السكون، السكون العدم، العدم الذوبان، الذوبان اللاشيء، اللاشيء التلاشي، التلاشي حاصل التفتيت والانقشاع حيث الصفر يكون ناتج كل الأرقام.)

ماذا تقول؟!

- لا أقول شيئا..

- ما هذه الكلمات التي توجهها عينيك [*هكذا في الأصل*] وتسب بها الحضرة والجواري؟

- أأنا أسب الجواري؟ هن لا يجوز عليهن إلا الشفقة والعطف فإنهن مغلوبات.

أتتكلم بلغة لا نفهمها وتتفاصح علي أسيادك وأسياد الملايين أمثالك؟

الجواري متحلقات حول الحضرة يعزفن الأنغام والتراتيل ويمارسن الرقصات والعري المؤلم والألم المكسو بطعم الحرير والجواهر والبساتين. والعبيد المخصية تطوف بالأقداح وكل ما لذ وطاب من أصناف الطعام

التي يعرفون طعمها أو لا يعرفون، وهم في حركة دائرية لا تخل ولا تنقطع، فالسياط المعلقة علي الجدران شاخصة أمام أبصارهم: يعرفون طعمها جيداً ويضطرون للي ألسنتهم كي لا يتصادم كلامهم مع كلامها...

(معذرة يا صديقي، سأمارس الصبر هنا وأتولى مكانك النقش بالقلم علي بياض الصفحات، أعرف أن ما سأكتبه لا يساوى ذرة مما كنت ستكتبه، أعرف أيضاً أني لن أستطيع إلا أن أرسم لوحة ناقصة. اغفر لي صديقي ، فعزيزي القارئ سيكمل معي الصورة. أأنت علي استعداد يا عزيزي .. إذا هيا بنا نبدأ.)

مثلوا بجسده ، صلبوه علي ذلك العمود السرمدي، ما رأيك يا عزيزي؟ لا! حسناً، قطّعوه أجزاءً مجزأة وألقوها في كل البلاد، لكنه لم تنهش لحمه الطيور الجارحة أو غير الجارحة، كل الطيور كانت تأتى محملة بالماء في أفواهها وتسكبه علي الأجزاء علها تنبت، فجُهزت المقاصل لكل أنواع الطيور، ماذا تقول يا عزيزي؟! أنسيتُ شيئا ؟! أشياء؟! آه إنك علي حق عزيزي، وأُعِدَّت النيران لسيدنا كبير الطيور، فطار طائر وارتفع، لكنه لم يقع، فربما كانت هناك سماء أخرى وأرض أخرى، ارفع صوتك، لا أسمعك جيداً، وأراضين أخر!، إنك ذكي لّماح يا عزيزي.

أطلقت وراءه السهام الصاروخية، تستقصي أثره وتتبعه،فتتبعته الطيور بعيونها الباكية، انفطرت القلوب، ماذا؟ لا أسمعك، أكمل أنت، هاهو القلم...

# مطاردة

ولأن الشاي لم يكن علي ما يرام وصديقي منقلب المزاج، وعامل المقهى غير بشوش والتليفزيون غير واضح الصورة والصوت مـــشوش ولاعـــبي الدومنيو حولي بدءوا في الاشتباك بالألسنة الحادة ولعن كل من يتـــدخل لتبريد ما بينهم من سخونة، وأفراد الصحبة مرتقبون يوما يـــأتي محمــــلا بأمنيات الشتاء المطيرة-الصحراء تتسع تدريجيا وأحياناً فجأة- فقد دخلت المعرض حالما بشراء كتب كثيرة مرادة في هذا المهرجان السنوي...لكنني عندما تصفحت الأغلفة الخلفية أو الأخيرة، أحسست بانقباض مفاجئ – ربما كان متوقعاً – ودُرت، وفي طريقي للسقوط سندني صديقي. لكن لم يكن هنا مفر،فسقطت مشيعا بالنظرات الغريبة أو المواسية أو. لبعض الرواد، وأحيانا تـــندر ضحكة من أحد الشفاه الرقيقة خرجت، كان الوقت متأخرا جداً، ولأنني لم أجد أي أتوبيس، ولأنني حمدت الله لأنه أنجاني من أي أتوبيس يقع بي من فوق الكوبري في النيل، فأنني توسلت بقدميّ وســـرت غـــير عابئ برزاز المطر الذي بدأ يترل رويداً ثم كثيفاً ثقيلا يُهـــبطني داخــــل ملابسي التي لا تستطيع أن تستقبل مثل هذا "الضيف الثقيل"[15]. ارتويت مرغما. ضحكت من نفسي عندما كنت أتمنى في النهار أن يحل المغـــرب بأقصى سرعة حتى أفطر وأروى ظمأ لا تخفف منه أطعمـــة مختزنـــة في جسدي.بعد أن هدأ لاعبو الدومينو لم يلبثوا أن عادوا إلي اشتباكهم حامي الدماء، أشار أحد الرواد إلي حجر الشيشة بجواره، فقدّم العامل النـــار مبتسما علي غير عادته. لم أتبين السر إلا عندما نظرت فوجدت الرجـــل

[15] *الضيف الثقيل* مسرحية لتوفيق الحكيم ربما كانت مفقودة وربما تم العثور عليها.

جالسا وشيشة من نوع خاص جدا بجانبه.عندما أوشكت أن أصـــل إلي مسكني كانت قدماي قد تورمتا تماماً وكنت علـــي وشـــك الهـــلاك. استقبلتني والدتي بالصراخ وقبل أن تقدم لي طعام السحور كنت قد نمت جبتُ ليالٍ حزينة وامتلأتُ بالدخان الثقيل، ثقلت موازيني و لم أعد بقادر علي أن أرفع ذاتي أو أخفض من شأنهم،عليّ أن أواجه التيار، وإلا انجرفت والتهمتني الرياح.جرفت تراكمات عديدة وطمرت مخلفات أَعَدّ. تباطأت قدماي وقلبي وهن. وها أنا أطارد بقايا حزن قديم، طاردني الحزن وتعقب آثاري، دارت حولي المستكنات و لم تقعد تطرقت إلي شارع جانبي، نمت فيه للحظات امتدت،قابلني أحد أصدقائي، أدار معي حديثا استطال قليلا، لكن قبل أن نصل إلى حل،حتى ولو حل وسط، تأزم الموقف اســـتيقظت علي صوت سيدة تصرخ علي ابنها الصغير الذي سقط في بالوعة ميـــاه المجاري، هب أناس قليلون من أماكن أكثر، ولكن الابن كان قد ضل في القاع، وكان قبله ثلاثة عمال صرف صحي قد ضلوا و لم يهتـــد إلـــيهم أحد،اهتديت إلي شارع خال فدخلت فيه،حاولت أن أستريح استيقظت علي صوت جدار يتأوه ففزعت وفررت صارخاً، ظل صـــوت الجـــدار يترجرج في أذنيّ، أمسكت الكتاب المقدس، تصفحت فيه للحظـــات، لم أفهم كلاما كثيراً من"عربيته". تمنيت أن تكون لدى نسخة إنجليزية منه في ذلك الوقت... هرولت وقبل أن أصل إلي نهاية الشارع، سقطت. عندما استيقظت كانت الشمس تتهاوى في الغروب. بعدها ظهر القمر مخنوقـــا فشربت جرعة ماء وسميت وحوقلت وخرجت.مضت بعـــض الـــدقائق الثقيلة فمضيت بجوارها مكرها ولأنني فأنني بدأت في تمزيق ما أكتبه،تاركا ضجيج التليفزيون يسيطر علي الساحة واكتفيت بفنجان قهوة سادة.

# همس

نزل من الأتوبيس، قبل مقر عمله بمسافات، لم يستطع أن يتحمل كثرة المطبات، تلاطم الأجساد، الاحتكاك المتعمد، التحرش الغريزي، عيون حسناوات، دخان السجائر، والدخان الخانق المنبعث من مؤخرة الأتوبيس إلى الداخل... أحس بأن الأرض تدور، والشوارع مظلمة، مشى حثيثا، يثقله سهده وأرقه، لم يشعر باصطدام الأجساد به، لم يسمع نفير العربات، ضجيج الباعة، الأغاني الزاعقة التي تنفجر هنا وهناك، لم يشعر بما حوله إلا وهو يجلس على مكتبه... طلب كوب الشاي المعتاد، ارتشفه بطيئا... أخرج قلمه، انخرط في العمل، لم يشعر بالنكات تنطلق من أفواه زملائه، لم يسمع الضحكات تجلجل في حناجر زميلاته، لم يحس بثرثرتهم حول ما حدث لكل منهم بعدما ترك المكتب يوم أمس... فرغ مما في يده، أشرفت الساعة على الواحدة، رفع رأسه، أنزل نظارته، مرر إبهام وسبابة يده اليمنى بقوة على جذور أنفه، زفر زفرة عالية، نظر إليه زميله الذي كان يهم بالانصراف، قائلا:

تبدو مرهقا!

لم أنم بالأمس.

يبدو أنك مشغول بشيء؟

يا سيدي الاستقرار يبدأ بعد الموت.

فأل الله ولا فألك يا أخي.

توضأ، وبينما كان يجفف وجهه شدَّه شكله في المرآة، أفزعته بوادر التغضن على جبهته والرموش التي تكاد تنطبق على بعضها البعض، ولكنها انفتحت فجأة، سحبت دمه الشعيرات البيضاء التي تحاول أن تجد لها مكانا في رأسه، سخر من كلام زميله، وجده يسخر منه في المرآة، سخر

من نفسه ومن كل شيء، وتمتم للصورة في المرآة: ... يا سيدي، أنا رجل! وما أقساه من وصف تتصف به! ما أنا بمتكبر أو عزوف! لكنني أخشى إن احتككت بهن أتعلق بواحدة لا أستطيع أن أتزوجها، فألعن ساعتها كل شيء... لكن الحذر لا ينجي من القدر... لست زاهدا في الدنيا كما ترى، الزهد تفرضه الظروف، وأنا أعشق النساء، بل كل البشر.... تقول "بيدك الحل"؟! لا، ليس بيدي الحل يا سيدي، لا أحب الإمساك بالخيوط المنحنية والملتوية والمنعرجة والمتكسرة....... ابتلع عجزه، هضم مرارته، رفع الكتاب المفتوح من على السرير ونام...

****

استيقظ، مازال الإرهاق يكتنفه، في عينيه ألم واحمرار، في جسده فتور، في قلبه مرارة وانكسار، استنشق الهواء، سعل سعالا شديدا، شرب كوب ماء، ارتدى ملابسه وخرج...سار بطيئا إلى البحر، يحتمي بشاطئه دائما عندما يحس بالتثاقل، يتقلب وسط الأشواك والكوابيس والأشباح التي تجثم على صدره فلا يستطيع أن يتكلم أو يتحرك أو حتى يتمتم ببضع آيات تطردها... جلس على صخرة تصدمها الأمواج بعنف فتتكسر تاركة رزاز الماء يسقط عليه والهواء المحمل برائحة الأسماك المهاجرة ينشي رئتيه. تطير الفتاة التي تعرفت عليه في المسرح القومي عندما كانت جالسة بجواره تحدثه عن المسرحية المعروضة وقابلته بعد ذلك مرارا، تحط بجواره، يهيمان مع الأمواج والامتداد اللانهائي للمياه والسفن التي تتراءى عصافير صغيرة في قلب البحر، يمتد بينهما الكلام ...... تندفع موجة عالية، تتحطم على الصخرة، تبلل حذاءه، ترتفع مياهها، تبلل وجهه، ينقطع دفق الكلمات والهمسات والأحلام، يختفي طيفها، يتلاشى إشراقه... تتلاشى الشمس رويدا رويدا في البحر، يخاف أن تبتلعها، تطفئها، فتحيلها قطعة فحم سوداء ولا يستطيع أن يحتمي بالغروب بعد ذلك أبدا...

# خبطات

بطيئاً يتكاثف البشر. الطابور طويل بطول عمر الأرض والألم المتراكم في قلب آدم لعصيانه ربه. مثل كل الناس ممسك بشهادة ميلاده وبحركة هُر عجوز مشلول يسير الطابور. الضجر الضاجّ في قلبه وانتظاره الرهيب لدوره يجعلانه يخرج مذكرة صغيرة من جيبه، يقلبها، فتمر كل الأيام والشهور أمامه، يحاول بقلمه – المحتفظ به دائما في جيبه – أن يراقص بعض الحروف المليئة بالحيوية وحركة التاريخ أو سكونه، كل "العيون" تتطلع إليه من خارج الطابور، يد خفيفة تتسلل، خاطفة القلم منه. خبطات في باطن الإسفلت تحته يحسها قوية ..عندما يُدخل المذكرة في جيبه، يشعر بحركتها الدائمة.

تزداد حركة الطابور ... أمامه تظهر الفتحة بأسياخها المتعامدة ويبدو من خلفها أو من أمامها، فلا يمكن تحديد الاتجاهات، عينان دقيقتان وأنف طويل كأنوف بعض الأشباح في مسلسلات الأطفال الكرتونية. يمد شهادة ميلاده – مثل كل الناس. تنظر إليه العين بتمعن: "الختم غير واضح. اتركها وتعال الشهر القادم.. ستكون مختومة وتستلم حصتك"....

تطاولت الأنف وتشممت لساني فأسقطت مادة كريهة كادت تجعل عضلاته تتآكل.. لماذا تتعالى الخبطات في باطن الإسفلت؟... كيف

سأعود ويدي مملوءتين بالأصفار الضخمة؟.. كيـف سـأقابل أمـي؟! ستتحسر علي وفاة أبي. ستخرج آهـــــة تمزّق قلبي وتجمّـد حزني جبالاً شاهقة تكتم زفراتي الحارة وتجثم علي قلبي المـذبوح. لمـاذا تُلحّين عليّ الآن يا حروفي المدللة؟ هل أنا فارغ الآن لتشكيلك؟ .. لماذا هذه الخبطات المتواصلة للإسفلت؟!!!.. ربما كان الإسفلت!! يـصرخ صراخاً مكتوماً، متألماً من الأثقال التي تسير فوقه، أو ربما كانت أحشاؤه تتقطع من الأقدام التي تُرْفَع وترفس بطنه غير منتبهة لما أمامها أو تحتها.. من الممكن أن يكون في حالة مخاض، فيُخبِّط من شدة الألم .. ما علينا. يجب أن أشترى قلماً.. الأفكار مازالت تدور في رأسي وتتقلب، تريد أن تتلاقى مع الحبر..ها هو جدار.. أتكئ عليه لكي أكتبها.. أين المـذكرة؟ كيف اختفت؟ .. الخبطات ورائي في الحائط؟!.. لا يوجد أحد؟! من أين تأتى إذن؟! .. لا توجد غير ورقة النتيجة الإجمالية للعام المنصرم .. لا يهم .. أكتب عليها..... وهو مستغرق في الكتابة تصرخ الخبطات خلـف ظهره، يلتفت، فيجد يداً تتلقفه وتسحبه إلي بحور من الظلام.

# كهربة

مسافات تطول وتُسْحِق، تبحر في فضاء غير مرئي الحدود، تُبعد الأنـــوارُ المضيئة دروبَ الحياة المتشعبة، تطعن قلبي بسكين مكهربة، أنظر بجحوظ، لا أستطيع أن أميز الأشياء التي أعرفها، أحس بطنين في أذني، يقـــذفني في بحار متداخلة، يضرب الموجُ الموجَ وأسقط إلى القاع حيث العفن والطين النتن والأنياب التي لا ترى أو تميِّز، أضـــع أصـــابعي في أذني، تقـــضمها الأنياب فيسيل الدم على بدني حارا، يسقط على الأرض، يرسم خريطـــة حمراء وسط ظلام الكون الشاسع، تهرع أسماك القرش إلى دمـــي، عربـــة تتراقص على نغمات أغنية غريبة، تُوقف على الخريطة، أحاول أن أصرخ: "هذا دمي، لماذا تخفيه؟..."، يسبُّني: "ألا ترى؟ أأنت مجنون أم نائم؟!!"، يد تخرج من العربة، تبعدني مسافات سحيقة، تسير بي في دهاليز متراميـــة الخطوات، منمحية العلامات، نائمة في رحم الظلام الذي يضاجع الليـــل ببيت دعارة في منطقة حجر صحي... كذب من قال "المـــسافات مـــن عينيك تبدأ"، المسافات بعيدا عن عينيك تبدأ، أين نظراتك الحائرة القلقة التي تتوحد مع نظراتي فتضيء لي الدهاليز؟ الظلام حبال من مسد، تخنق، تحرق، تشرد، تنفي، تصير حيات تسعى، تلقف كل حبات النور المبعثرة، تنفث سمها في القلوب الندية، تتفرعن، تفرد أجنحتها السحرية، تصفعني بها، تقذف بي مسافات في الاتجاهات النائمة في حضن السكون... تسير بي الدهاليز، أسمع أصوات، يتلألأ بريق في قلبي، يذيب بعض طيات الظلام

أمامي، أُسرع الخطى لمجالسة تلك الأصوات والاستئناس بها، صوت سحيق هائل يوقظني، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ ألقت بي اليد، ممنوع السير هنا، قذفت بي الحيات، يقدم للمحاكمة فورا، ماذا فعلت؟ أنت مجرم ينتهك الحرمات... كذب من قال إن "المسافات من عينيك تبدأ"، المسافات بعيدا عن عينيك تبدأ، أين كلماتك وأحلامك وطموحاتك هنا؟ تبعث فيّ القوة لأحطم ذلك الصوت السحيق فيموت ظلام الدهاليز وتنفتح القلوب على بعضها حيث يكبر النور ويثمر الضياء...

يُشد صليب خشبي جديد على الحائط، تدق المسامير في يديه ورجليه وكبده، يشير بعينيه الجاحظتين إلى الدم المتساقط على الأرض، "هذا دمي، هذا دمي، هذا أنا، إنه أنا، إنه هي، نحن، كلنا"، تُدَّقُ المسامير في لسانه وعينيه وقلبه، يتساقط دم عينيه على الطيور التي تأكل في رؤوسهم. يحاول أن يرسم ابتسامة على وجهه. تتبول الطيور على أسياخ النافذة. يحس برائحة الجردل الذي يتبولون فيه بالداخل قوية في أنفه. يصعد على ظهر أحد زملائه. ينظر من النافذة. تندهه المسافات الممتدة في عمق الصحراء. يضحك ساخرا عندما ينسحب زميله من تحته فجأة فيسقط إلى الرائحة الزنخة. يفتح صفحة من صفحات ذهنه ويبدأ في تدوين بعض الجمل. يكرر الجمل على زملائه كي لا تندثر من صفحة المخ ساعة كهربته.

# صدى القهقهات

تدب أم كايدهم على الأرض بجلبابها الأسود وحذائها الذي يرفع التراب ورائها متضجرا حزينا. يدفعها الفزع نحو وجهتها على الطريق. لابد أن الشيخ خضيرى سيشفيه. سلامة أولادها فوق كل اعتبار. لابد أن الجان سكنوا رأس دهشان. ها هو يضربهم كلهم: أبو العيال، نفيسة، كايدهم... لا أحد يسلم من يده، يريد أن يأخذ زوجة ولدها كايدهم، يقول إنها زوجته. لا يوجد أحد في القرية إلا واشتكى منه.يروح للجيران ويطردهم من غيطانهم، ويقول إنها أرضه

تمد للشيخ خضيري طاقية من أثر دهشان، يطلب مائة جنيه. يسألها عن صاحب الطاقية ورسمه واسم أمه وأبيه وصفته وماذا يعمل وعلاقته بأقربائه وجيرانه ... يهلوس كل يوم. يمشي في الطريق، يمد يده نحو كل الغيطان. يقول لكل الماشيين إن الأرض كلها أرضه، وهو ما لا يقدر على رعايتها بمفرده، وسيوزع علي كل واحد غيطا يرعاه ...يمسك القصبة[16] ويسير هائما يقيس كل الأرض وكأنه من رجال المساحة ...

تخرج المائة. لا بأس. ليست الوحيدة على كل حال. ... هائج هذه الأيام، يكسّر كل شيء. كاد يحرق شونة التبن لولا أبو العيال والعيال بعّدوه وقيدوه في النخلة طوال اليوم... يحرك الشيخ المسبحة في يده، يلقي البخور على النار، يتكلم بصوت خفيض، يبدو في غُفلة تامة،إلا

---

[16] القصبة أداة لقياس مساحة الأرض عبارة عن جريدة نخلة يابسة ويبلغ طولها حوالي ٣٥٥ سم، وقيراط الأرض مثلا تبلغ مساحته ٤٩ قصبة.

طرف عينيه..يفيق من "غفلته"، يدخل غرفة مجاورة وهو يكلم وجوها لا تبين، يغلق الباب وراءه بإحكام.. يخرج طاويا ورقة في يده..ما هذا يا سيدنا؟ الأسياد يطلبونك. لا يصح يا سيدنا. أأنا الذي أطلب؟!! .. ينغلق الباب على حركة هائجة بالداخل .

يركب كايدهم الحمار متجها إلى الغيط. يأمر دهشان أن يحضر المنجل ويأتي وراءه كي يحشّ البرسيم للبهائم. فيحضرها في صمت. تتقدم منه أم كايدهم، ممسكة "بالحجاب" لتعلقه في رقبته. عفريت يركب دهشان: تحمر عيناه، يتلفت حوله في عصبية وقلق، يتراءى له طيف أم جمّع ملامحه من كلام الناس عنها، تتقلب في قبرها فزعة، يحوم في الأفق خيال أب مات تاركا إياه في مدرسة أخرجه عمه منها، ألن أتزوج؟ قلت لك تزوج نفيسة ولك كل شيء.... تقترب أم كايدهم. يقوّي قبضته على الشرشرة. ...نفيسة... إن لم تجد أحدا تسبُّه تسبُّ نفسها. تلطّفه بكلمات عندما يقفز الشرر من عينيه، تطلب منه أن يأخذ الحجاب...
...نفيسة ...كلما أراها أمسك بطني... تمسك الحجاب وتقرّبه له ...
بنتك ليست لِيّ يا عم. ما لك عندي شيء، لن يسمع كلامك أحد. ...
تلبسه الحجاب، يقوّي قبضته على الشرشرة، يرفعها، يهوي بها على صدرها، ينتزعها وبكل ما أوتي من تذكُّرٍ يهوي بها. قبل أن يهبّ عمه من الداخل تفر منها الحياة.... يخضّب يديه بدم عمه. يلعق الدم. يلقي المنجل. يفر وصدى قهقهاته يتردد في عنان السماء....

# اغضب

قالت كلمتها وانصرفت. لم تحاول أن تبحث عن جذور تلـــك المقولـــة العتيقة. انصرافها يؤكد أنها لم تفهم الموقف أو تستوعب ما تقوله ومدى مطابقته للحالة أو سياقه. كانت تتعثر في خطواتها: ربما من التردد، القلق، الخوف، الحيرة، وربما لأنها لم تستطع أن تعود إلى انسجامها القـــديم... حاولت أن تنظر................. إلى ................. الوراء لتستطلع... مدى... انفعالاته وانعكاس كلمتها على ألواح قلبه، وجدته ينظرها بنفس العمق والهدوء و نظرة الإعجاب لم يغيرها ما قالته. سقطت دمعة لاإرادية منها، وبدون تحكم استدارت إليه وخطت خطوتين. لكنها سرعان ما استعادت كبرياءها– الغبي أحياناً– واستدارت للأمام، ســـائرة إلى حيـــث لا تدري................. ذهبت إلى والدها تقص لها ما حدث – وربما ما لم يحدث – تضيف له تصوراتها عن الموقف وفهمها لـــه. وبـــالرغم مـــن أن إحساسها لا يثق في رأى والدها، فإنها أخذت تروى لها. مع ذلك فإن داخلها يقول لها – مجرد تخمين – "لا تتكلمي، ستخلق فجوات، ستنشأ أسوار". وربما لن يكون هناك انطلاق و"عرفة"[١٧] ربما لن يجد "الكراسة" وسط تلك المرتفعات المتضخمة من أكوام الزبالة، والزبّال ينظر له باستهزاء وبلامبالاة متعمدة. ربما لأن والدها مسافر وحتّما ترسل له ويرد عليها، ستكون دخلت في حالة من المحتمل

---

[17] عرفة البطل الأخير في رواية نجيب محفوظ *أولاد حارتنا*.

أن تكون في الاتجاه الآخر ..... غاب عنها ...اتصاله ..... سؤاله ... هدوؤه ... ونظرات الحب الكبير، استرجعته، واسترجعت ما دار، ما قاله، وما كان. لم يثبت في قلبها إلا نظرت الحب في عينيه، استرخاء روحه والحنان الأبوي ساعة تركها له. تذكرت المسيح وحلت في جسدها الروح، فدلفت في المسجل شريط "أغضب" لأصالة نصري، وبكت. ذرفت الدمع واسترخت. نامت في أحضان دموعها.... وفى المنام رأت نفسها طفلة صغيرة تتهادى بين يدي حبيبها، وهو يداعبها، يلاعبها ويلاطفها ... أو هي التي تبدأ أو تبادر.... أفاقت على أصالة ترسل كلماتها الأخيرة ....... رأته أمامها، نظرت إليه بقلب غير إقليمي وهدوء بديع، فابتسمت للرعشة الوليدة في قلبها، والنشوة المتغلغلة حناياهـــا، ارتـــدت ملابسها وخرجت .....إليه.

# التئام

فمهما كان مازال يصارع، تأخذه الأمنيات إلى ذلك الشاطئ البعيد في الركن القصي والخضرة الوليدة خلفه ترسم لوحة عبقرية بأيدٍ عنيدة، مياه البحر الحرة تجوب البلدان وتأتي محملة بخلاصة التاريخ والبناء. استطاع أن يكوّن دالاً حراً له، نجح في أن يتخلص من الارتباط بأي مدلول يحصره داخل دائرة شريرة أو يقيّض أركانه الفتية، أو يضيّق حدود قلبه الطفل ويغمره بأمواج ظلامية جبارة....

قالت تلك العيون القاسية ليس لك الحق في أن يكون لك مدلول، وقال وليدها المدلول:

"أنا أريد أن أكون لك المدلول، أحس بدلالتك، لكن أمي لا تشاء، وأنا لا أستطيع إلا أن أخضع لمشيئتها . فلقد قالت لي إنها أبصرت ما لم أبصر به، ولكنك لست رسولاً وليس لك آثار". قال: "فلتذهب إلى الجحيم، وفي رواية أخرى، إلى الشيطان، تلك المشيئة، ذلك الخضوع، الخنوع، وتلك العبثية اللامبالية". انصرف إلى داخله وقلمه، عبر الشط على حبره بعيداً عن الوهم الكاذب، الأحلام الساذجة، وتلك الادعاءات الأرستقراطية المتعفنة. صرخ القلم: "ابتعد فمكانك ليس هنا، مكانك هناك حيث اللاحدود، الانطلاق، التفتح، التوهج، وصهر الدوائر، هرول بين تلك الفراغات وشكّل منها لوحة تمثلك وتمثل ذويك ...". انزوت

تلك الإدعاءات والأوهام، وانجلى من تحتها الــوعي واليقظــة والإدراك.

شيء يرجع له في الانزواء وإرادة تنبع من داخله في الإدراك.

انفجر المدلول. لعن المشيئة والخضوع والارتكان إلى كلام متقوض الأركان. حاولت أن تتصل بدالها وتكون معنى مجسداً يتحرك على الأرض. عبثاً تحاول أو تجادل أو تريد، فالدال انطلق بعيداً عن مدلوله عندما أدرك أنه متقــوض الأركان يبحث عن عجل ذي خوار وبريق الذهب يتطــاوس، وأن المعــنى الذي كان يظنه فيه لم يكن إلا وهما من أوهامه هو نسجه في وقــت كــان خياله يسبح في وجه لوحة أصيلة، ارتدى قماشها ولكنــه لم يبحــث عــن روحها أو خلفيتها، فأماميتها كانت سجّانه. سبح وسط البحار، الأشــجار، الأقمار والنجوم، لكنه ظن أنه يبحث عن ذاته هنا، وما بحث عنها قــط إلا عندما ترك الدائرة، فألقى نظرة أخيرة عليها وخرج على الإطار.

# ميـــاه

أحاول تحريك يدي، تتصاعد المياه، تتطاوس فوق جسدي الهزيل، تثقل، تتوقف يدي، سأغرق، أبدأ في تحريك رجلي... أجرب رأسي، هي الوحيدة التي لم تتوقف... تنفد حركاتي، أتساقط هاويا على أعماق المياه، أصرخ، أنهض، تفزع زوجتي: ألن تكف يا رجل عن هذه الأحلام المفزعة؟ ألا يكفيك نومنا بدون عشاء؟!!!... تهدأ أنفاسي، أنهض، أترك السرير لأضيئ النور، يا إلهي!! ما هذه المياه المتدفقة في غرفتنا الوحيدة؟!! أرفع بنطالي، أخوض، أضيء المصباح، تتزايد المياه، أصرخ، يجف حلقي، أفتح حنفية حجرتي، لا توجد مياه، يزداد عطشي، لا توجد غير هذه المياه الطافحة في الغرفة، أمد يدي، أغترفها، آآآآه، لا أحتملها، جوفي يتعفن، أضع يدي على بطني، أفتح فمي... لابد من إخراجها، أحاول، تخرج أمعائي، تتطاول أمام عينيّ، ينقعني منظرها في الفزع، أمد أصابعي، أمسكها، أدخلها، لا تريد أن تدخل، أستميت، أفقد توازني، أسقط، أحدث ارتطاما، تستيقظ زوجتي، تصرخ، أقوم، أنياب المياه تطول، أقفز على السرير، تقف زوجتي، تتسامق المياه، يزداد صراخها، تجري فزعة إلى الباب، أستبقيها: - لا مكان لنا غير غرفتنا، الشارع، العراء، سأُخْرِج المياه. – سأغرق... تضع يدها على الباب، ألقي بنفسي ورائها، سأستبقيها، سيحميها السرير، سأخرج المياه، أمسك بها، تصرخ في

وجهي، أرجوها السكوت، لا أريد أن يعرف الناس أسرارنا، تصرخ عاليا، يجدف صوتها فوق المياه، يخرج من الغرفة، يدخل كل غرف البيت، أغلق الباب بإحكام، لن يخرج الصوت، تصرخ أكثر، تفتح الباب، تلعنني، وتلعن اليوم الذي رأتني فيه، يتماوج صوتها، يسيل في الأثير، يبلغ كل الآذان، آلاف العيون تتلصص علينا، تحملق، تسترق السمع، يقفز قلبي من صدري، تدوسه أقدام العيون، تفركه، يتشقق، تنبثق منه دماء متفجرة، يظهر لونها واضحا وسط المياه، ملابسي تطير من على جسدي، ملابس زوجتي ليست عليها...

أشعر بلفحة الهواء، أحاول أن أمد يدي. تصطدم بالأجساد المتراصة حولي في العراء. أسمع سرينة الشرطة فوق الكوبري. أقبع كأنني الموت، واضعا الحجر على بطني كي أخرس ذلك الجوع الذي يمتد ما بين الشوارع وبطني.

# شبح في المرآة

النجوم الفوضوية تتثاءب، الشوارع تتململ في مضجعها من حركة الرواد، تعلن أنها ستنام، يبدءون في الانصراف تاركين الفراغ والبرد اللاسع في ليالي الشتاء... يصحو السلّم على وقع الأقدام فوقه، ينظر بعيون مجهدة ...

يعود السلم لنومه العميق بعد أن تدخل الأقدام شقتها، يرتاب حامل الأقدام لرائحة العطور الزاعقة المحملة في طيات الهواء... إعراض زوجته عنه في الأسبوع الأخير وتمنعها يثقلان قلبه بأشياء. لون الدخان على المقهى وطعمه يذيب الثقل ويجعل القلب خفيفا منتشيا، والأيادي تتبادل اللعب، والأفواه تثرثر حتى الساعات الأخيرة من الليل... ينادي زاعقا على زوجته. ربما لم يخرج صوته من حنجرته فهو لم يسمع لها ردا. التوجس أظافر طويلة تنهش قلبه وكبده، يتسلل إلى غرفة النوم، يسمع موسيقى خافتة منبعثة منها، يسمع صوت دمه الحار يجري ويلهث في عروقه، يدفع الباب هاجما، صوت الباب المرتطم بالحائط خلفه يقطع أنغام استغراق زوجته، فترتعش من المفاجأة وتنهض فزعة. لكنها سرعان ما تحتمي من السقوط بالسرير ... يصيِّر كل نغمة تهمة موجهة إليها وكل نسمة من الهواء المعطر سؤالا مستريبا. ينظر إلى صورة زفافهما والبسمة العريضة المقتسمة على وجهيهما. أمعقول؟ يفتش تحت السرير.... يفتح

أضلفة الدولاب، يخرج ملابسه وبكل ما أوتي من قوة يقذف بها نحو الحائط... يسرع إلى الصالة، يقلب ما استطاع من الكراسي... يجري إلى الحمّام والمطبخ... أين؟ كيف؟ ... أسئلة لا تدري زوجته كيف يوجهها أو لماذا يهرول في أرجاء الشقة ويفتش كل شيء...

وهو خارج من المطبخ يلمح شبحا في المرآة فوق حوض المياه، يجد الشبح ينظر إليه بغضب واسترابة، ويرسم من أنفه علامة استفهام تتلوى في قعر المرآة... يكوّر قبضته ويقف متحفزا، يلكز الشبح المتحفز، فتندفع قبضته في المرآة وتخرج بصرخة مخضبة بالجروح. تسرع زوجته على أثر الصراخ فزعة...

# رجـــوع

ضجيج منفجر بالمكان، خيوط صمت مكبوتة في قلب كـــاظم غيظـــه، يحتسي شيشته بدفء... واقفة في الشرفة تنظر باشمئزاز إلى تلك الخيـــوط التي تتصاعد في الفضاء وتسخر من كل هدوء....طائر يهجر عشه فوق أحد السطوح، ربما مؤقتاً، ربما للأبد، الأنوار متوهجة، الطنين يفقـــدها بريقها "انتِ مش واحدة بالك، انتِ مش عارفة حاجة". "نار ، نار ، نار، أنا قلبي قايد نار". "ما بلاش نتكلم في الماضي". حية تفح بـــشدة، ربمـــا لتطغى على تلك الأصوات المتسلقة على جدار الليل الموتـــور . المعلـــم حنورة يحيى ..... أهل الحارة ياركون ...... أحسن نقطة لأحسن .... ونقطة لأجدع مغني ...... نيابة عن أهل الصعيد المعلم أبو كرشة يحـــيى ..... "ليه يا فن بتدوش وانت نبت حنون"، قالها أحد المارة وانـــصرف ..... صوتها الموغل في البعد يترقرق في أذنيه ... يأخذه بعيداً عن هنـــا ويموج به في بحار من الحاضر البعيد وبحور من المستقبل الأكثـــر بعـــداً، يناجي القمر الغائب أو المخنوق ويعاتبه على تركه لوحده يعاني ضـــجيج الحناجر ويواسي صراخ الآلات، ضرب مستمر، والضرب لا ينتج أرقاماً ولا مشاريع، يقتل فقط بعض الأحاسيس التي مازالت بكـــراً والـــشباب المتأخرين في السن حول حديث ما.

وليدة هي من طمي النيل. لكن الطمي يبدو أنه فقد أصالته فأصبح يتأثر بكل ما يقال وما يُصمت عنه من ألسنة لا تستطيع إلا الثرثرة فيما لا يفيد المثرثر عنه، إليه، أو حتى المستمع. كلام على كلام، صمت على صمت، عجز على عجز، يتراكم الألم، تتكاثر الجروح، ويظل الصمت المكتوم هو الذي يتملك قلبه ويلقى به في دوامات من الأفكار التي لا تجلب إلا الأحزان وثقل القلب، والتثاقل، وصراخ .... يداويه فقط هدوء أعصابه الذي يحاول أن يتمسك ... به أحياناً لينقذه من الضياع، والتوتر، والجدليات التي لا تريد أن تكتمل أو حتى تقبل أن تتشكل في معادلة سوية أو حتى بها بعض الأمراض. عندما أخذه الصمت إلى بحور بعيدة وعندما تغلب الضجيج بعد كل محاولاته، ترك شرفته، غرفته، وخرج.....

أسرع بعيداً عن...... ذلك الشارع في تلك الحارة الضيقة حيث الأصوات تصر على أنها عبقرية في الأداء ومرونة في التفاعل... (ووجدتني أنظر إليك في كل مكان .... وعندما فشلت .... تُ في العثور ..... عليك أو على .... نفسي، راودتني رغبة في التبول على كل شيء والبصق على كل الأماكن والمنشآت ..... وبما أنني لم تكن لدى رغبة غير إنسانية في فعل ذلك، و لم أكن قادراً على فعل أي شيء ـــ ربما أفقدت تلك القدرة منذ زمن، ربما كانت لدى القدرة ولكنني لم أكتشفها في الوقت المناسب، ربما غضّت هي عنها النظر لأسباب خارجية، من المحتمل ـــ مجرد احتمال ـــ أنها كانت خارجة عن إرادتها،

وأمنياهًا كان عودها لم يقو بعد، ولم يقدر على مواجهة تحديات القـــرن الذي أوشك على الانصراف، أو حتى فقط قول كلمتها ــ فإنني تمالكت نفسي وصمتُّ. ذهبت إلى النيل بهدوئه المحمّل بعبق الجنـــوب بقدراتـــه العجيبة وإمكاناته التي ذبلت فيّ ونحل عودها. أخذت أنظر وأحـــاول أن أعزف على بعض الأوتار المتبقية. هدوء عجيب لـــف شـــر..... يـــط الذكريات المقطو....ع وانداح بي في اللامحدود من...)

استيقظ فزعاً على صوت سرينة تصرخ وتضج. سأله رجل فيهـــا عـــن هويته. لم يستطع أن يجيبه، فقط أخرج له بطاقته الشخصية الطاعنـــة في السن. نظر إليه باستغراب، وربما باستنكار، لكنه "للعجـــب، لم يقيـــدني بالمصفّحة، ولدهشتي اللامصدقة لم يأمر أحدهم باقتيادي حيث أن أيديهم كانت هرش بشدة لتتحرش، فتنفست باسترخاء، ملأت رئـــتي و..... " ورجع.

# في انتظار الفرح

أشعة الشمس المحمرة تلقي نظرة أخيرة على مياه النيل، تقبّل ضفافه الحانية، تلقي السلام على عشاق النهر وتتوارى خلف الجبل، فلا نجد أمامنا متسع من الوقت حيث أن فيلم "سارق الفرح" لداود عبد السيد على وشك البداية، نشير لأحد التاكسيات المتسكعة في شوارع سوهاج... بائع التذاكر يرتشف رشفة متبقية في كوب شاي أمامه، فنقطع تذاكرنا قبل أن ينصرف وندخل... لا نجد فرحا ولا سارقا، فالفيلم المعروض أمامنا ليس له أية علاقة بداود عبد السيد، أميل على رجل جالس بجواري، "سارق الفرح آخر فيلم"... فنحاول أن نخفف عن أنفسنا بالثرثرة الحميمة الهامسة.

# أحجـــار

يجري الشارع، وهو لا يجد مكانا له وسط الأقـــدام. يهـــرول في كـــل الاتجاهات، لكنه ثابت مكانه. صرخت دمعتها، انهمرت سيول الجفاف، جرت أنهار الفراغ، فرحت الأحجار، زغردت كثبان الرمـــال، هللـــت الأرض الخراب، بكت السهول، ولولـــت الأرض البكـــر، وصـــرخت الأشجار المتحركة... يحاول أن يقوّي قدميه، لكن الأحجـــار تجرفهمـــا وهي تنظر إليه بعيون ساحرة مستنفرة. قالت: "كان لينا أماني كـــتير"[18] ضاعت كلها في أحجار، أسفار وشوارع، "سفر الخروج" مختوم بالشمع الأحمر. الزمان حاجز بيننا وبين الأمنيات، الأمنيات متوهـــة في فـــضاء الزمن. يحبو تحت الأقدار ليصل إلى أية محطة أتوبيس، الأتوبيسات لا تقف في المحطات، تحط على رأسه الأثقال، ينوء بهـــا، لا يعـــرف الألاعيـــب لتفاديها...... عندما تستمر الأتوبيسات في السير، يحاول أن يتعـــرف على قواه المتبقية، يجمّعها من كل الأركان، يقذف بنفـــسه في عـــرض الشارع عسى أتوبيسا يفترسه، ينظر، يجد الأتوبيس توقف في المحطة قبله، يجري إليه لا يجده، يجد نفسه مرتطما بباب الغرفة وزملاءه حوله علـــى المكاتب ينظرون إليه بإنكار، يمسح الدم المخضب بالغبار، يحاول عبثا أن يعود إلى مكتبه أو حتى يمسك كشكول التحضير الواقع على الأرض....

---

[18] من أغنية لليلى غفران تقول فيها "كان لينا أماني كتير ضاعت كلها في أوهام...".

# خيوط النظر
## أقاصيص

### نبت

عندما ترى مياه النهر قادمة، ستلتفت حولك مغتبطا، ستبحث عن عيون تضم معك الشوق المواتي، تحتضن داخلك النبت القادم. قد تجد حبيبين يغازلان جذع شجرة. قد ترى عصفورا يبدأ في تعلم الطيران. قد يلفت نظرك شعاع شمس يحاول أن يصافح المياه الهادرة. ساعتها ستحضر حبيبتك من صحرائكما وستسكنان على ضفة النهر: ستبنيان بيتا، تفتحانه على النهر، تبنيان عشا لعصافيركما الصغيرة، صالة استقبال لأشعة الشمس الحانية، منضرة لعشاق النهر، وتغنيان. ساعتها سيزمجر النهر طالبا الصمت.

### أعوذ بالله

خرج من المدرسة مع زملائه. دعوه للذهاب معهم، ربما لتناول الغداء أو الزيارة. مضوا به في طريق طويل. همسوا للطريق ببضع كلمات. انشق لهم طريق في باطن الأرض. عرجوا فيها إلى بيوتهم. رأى عيونا رأسية حمراء، آلات حفر ينخرون بها الأرض لأعلى كي تنهال بمن فوقها. ارتعب. ظل صامتا إلى أن مات.

### مكتب التحلية

يرفض أن يدفع خمسين ريالا لإقامة حفل لتوديع صديق. يتوعد كل طالب لا يوصله بسيارته بالرسوب. يجيء بكيس فيه عشرون بيضة على الأقل. يفترش مكتبه ليأكل ويلقي القشر على الأرضية، ثم يحلّي بعلب تونة يأكلها بملعقة. روائح تنفجر من سلته لا يحس بها. تسد أنفك. تتصل بإدارة النظافة ليرسلوا لك عامل نظافة لا يجيء.

## بالسلامة

تدرك أنها تأخرت، فترن عليها، ربما تريد أن تجعلها تحس أمام صديقتها — أو صديقتها هي التي تحس — بأن زوجها يسأل عنها، فتجد أنهن مازلن على كوبري قصر النيل، يمشين إلى محطة الأوبرا ليركبن المترو، أتريد شيئا؟ لا، أبدا، مجرد سؤال، أين أنت الآن؟ هل يوجد أحدك عندك؟ لا، أتريد شيئا؟ تصلون بالسلامة، سلام، سلام...

## يحدث أحيانا

تئن من حَمْلها، تتكئ عليك أنت وصديقكما، يصبّركم سائق التاكسي بكلمات لا توقف صراخها، يدعو لكما بالتوفيق ودوام المحبة، تصلان صالة الطوارئ، يسألك موظف الاستقبال عن اسمها، تكتشف أنك قلت له اسما غيره، فتحمد الله أنها لم تسمعك.

## سفارة

ذهب في أجازة الفصل الدراسي الماضي ليتزوج من السودان، ذهب الفصل الحالي ليتزوج من الصومال، لجأت زوجته إلى السفارة الأمريكية.

## نظرة

كان يود أن يقول شيئا. كان بياض عينيه اللتين كانتا سوداوين يستر شيئا وراءه. حاول جاهدا. لكنه مات.

## حلم

كان يحلم بالمطر. كان يقول إنه في الغد سيقف على رجليه ويجوب الغيط كله. عاندنا الغد وجاب به الغيطان حتى المدافن.

## دعاء

"يا واد يا حسني إخوتك تعبوا معي، ربنا يبارك لهم". حاول أن يرفع يديه بالدعاء، لكن الحياة خانته.

## مأتم

كان الناس يتوافدون للعزاء. يتوافدون ولا سيرة لهم سوى البيت المُعْتَبَر الذي بناه أولاده.

## جنازة

كانت السيارات صفا طويلا لا أول له ولا آخر. وكان من المفروض أن تتقدم سيارة أبنائه الصف. لكن المرشحين لمجلس الشعب كانوا يتبارون ليظهروا في أول النعش.

## قبر

كان الحانوتي يتلقفه بلامبالاة. وكنت لا تدرك معنى نزوله. ربما كنت تعتبرها نذالة منه أن يترككم.

## أستاذ

عندما جاء للعزاء احتضنك وشد على يدك ماسحا ما فعله معك منذ عشر سنوات. وعندما غادر العزاء ذهب ليعطي أختك مقبولا في مادتيه.

## قراءة

قالت: أتقرأ رواية ولا تجلس معنا.

قلت لها: أقرأ لأجلس معكم.

## كتابة

كانت أيقونة أغنية أصالة "أنت وأنا" مكتوبة باللغة الإنجليزية، فأردت أن أكتبها بالعربية، ولكنها انكتبت "أنت وأنت".

## قلوب للإيجار

قالت:عندما يجيء أصحابك تجلس معهم بالساعات، وعندما يمشون تجلس على الكمبيوتر لتكتب أو تبحث على النت، اليوم لي. فجلست معها أمام التليفزيون أشاهد برنامج "حدث بالفعل" وفيلم "قلوب للإيجار".

## صمت

قالت أشياء كثيرة وطلبت أشياء أقل، وعندما وجدتني صامتا قالت لي: "ألا أكلمك؟". قلت لها: "في الصمت حكمة وفي الكلام طيش". فردت "أنا أريد هذا الطيش".

## جار القمر

كلما نجلس أمام الكمبيوتر لنشاهد حفلة "جار القمر" لصباح فخري، تظن أننا نشغِّل الحفلة لنتفرج على البنات.

## امتحان

قلت لها أقرئي رواية ساحر الصحراء، فردت في استنكار ضاحك:" أنا أقرأ!!!"، فرددت بخبث: "إنها امتحان لك". لكنها أصرت على الرسوب.

## وجهات نظر

تقول لك إنك لا تتعامل معي إلا كجسد. تعتقد أنك مازلت قادرا على الإحساس.

## انتظار

كان يجهز للزواج. بعثت خطيبته بالتنجيد مع أحد الجيران المسافرين "لمصر". أخذ ينتظره أياما وليال. ما من أحد سوى تعطيل المصالح.

## نفسها

تقرأ كلمات في عيني، أحلف لها أنني ما رسمتها، تصدق نفسها وتكذبني.

## رومانسية

تلومني لأنني لم أعد رومانسيا معها، أقول لها "أحبك"، فترد "وماذا بعد؟"

## اتهام

تتهمني بأنني لا أحبها ، وعندما أسألها عن السبب، تقول لي إنني أحب بناتي أكثر منها.

## إبعاد

"ماذا تفعلان؟" قالت البنت، وراحت تباعد بيننا بأن ألقت نفسها فيما ضاق بيننا من مساحة.

## انشطار

شطرها نصفين، لكنه لم يأبه بلم شتاقما، فقط اكتفى بتفريغ شحنته.

## تفاني

كانت جد منهكة، لكنه عندما لوح لها بما يعتصره، بذلت كل ما في وسعها لإسعاده.

## اندماج

كان يقول لها كلاما كثيرا، أحست بأنها جزء منه، ولما اندمجا أدركت مدى الفجوة التي تفصلهما.

## الرباط المقدس

ولما انخرطا في مجريات الحياة، أدركا أنه لا يربطهما سوى تلك الورقة.

## الجدار العازل

الأنذال تتعامل معهم من وراء جدار. لا تتصادم معهم. تبتسم في وجه هذا. وتلقي السلام على ذلك. وترحب بفلان الأكبر منك. لكنك لا تعدم من يجيء ليتبجح معك أو يكشف عن أصله ناسيا كل رقتك. فتهد الجدار وتعمّر مسدسك.

## عقله يربحه

يقول إننا لم نفعل له شيئا. يريد أن يفتح مشروعا. لا يعرف أن ما فعلناه من أجله سنظل نسدد فيه لسنوات.

## سبحانه

قال إنه يريد هذا الفدان. أعطيناه له . لما رآنا هكذا، نظر بطرف عينه

وقال: "أين نصيبي؟"

## سفير

قام بمهامه، فقُتل.

## وزير

قام بجولته، ضربوه.

## بناء

قال لبيك، سنغرس هنا شجرة، سنقيم هنا مدرسة، سنصدر صحيفة، فأُطلِقَت رصاصة في ظهره.

## شقتها

أشترت دولابا وسدت به الفسحة الضيقة بحجرة المكتب. اشترت الدولاب رغم أنها لا تجيء إلا مرة في السنة. اشترت الدولاب لتضع فيه ملابسها في هذين اليومين. اشترته وتركتك وأهلك تموتون غيظا وضيقا.

## الدولاب

سيظل هذا الدولاب الماثل أمامك في حجرة المكتب مخرجا لك لسانه. وستدركَ بعد رحيلك أنك ارتحت.

## استفزاز

أرسلت أنها ستجيء. عليك أن تغادر الشقة ليومين.

## وحدة

كنت تجلس وحيدا. لا أحد يؤنسك سوى حفنة من الأغاني وصوت الشيشة. رآك الهم وحيدا "فصعبت" عليه وجاء ليؤنسك.

## حياة

تمنى الموت، كسرت سيارة قدمه وتركته حيا.

# بقايا موسيقى

## أداء الواجب

تزعق المغنية الشابة على مسرح المحكى، تندفع حنجرتها بأصوات ذات وقع نحاسي صلب، نوليها ظهورنا... تحاول أن تجذبنا بأغان سريعة، لكننا في القلعة، لا نريد إلا أن نسمع موسيقى "قلعية"... عندما تفشل في جذبنا أو تغيير ما تقدمه، تنهي أصواتها، تبتسم لنا ابتسامة صفراء، فنصفق لها تصفيقا فاترا لمجرد أداء الواجب...

## عادم

أخذت المذيعة تصفف شعرها لأكثر من عشر دقائق وكأنها في مسابقة تشترط أن يظل الفائز يصفف شعره أكبر وقت ممكن. بعدها تحدثت سريعا "على الهواء مباشرة" مع العازف... في أقصر وقت ممكن تركت مسرح المحكى تماما لتريحنا وتتركنا "على الأنغام مباشرة".

## صوت

تنساب الموسيقى عذبة إلى مسامعنا المتلهفة. نلقي بكل أحزاننا ومشاغلنا. ندع أنفسنا لهذه اللحظة عبقرية الخلق والمرونة. نتهادى يمينا ويسارا حسبما تشاء الأنغام. يهب صوت من الصف خلفنا. تقول امرأة: "كاميرا تصور"، فيرد عليها رجل يبدو في صوته خشونة: "هناك رسالة يومية في التليفزيون"، فترد المرأة: "يعني ممكن نظهر في التليفزيون!!". ثم يواصلان

كلامهما وكيف أن كل الناس سيروهما في التليفزيون وسيشيرون إليهما. لا نملك إلا أن ننسحب إلى ركن قصي خلف المدرجات لنستمع إلى موسيقى القلعة. يمر أمامنا ولد وبنت. ينظران للوراء. يقول الولد: "لِمَ أمسك بهم البوليس؟"، فترد البنت: "معهم بانجو"، فننظر إلى بعضنا في حيرة وتساؤل.

## انسحاب

يد العازف تداعب أوتار العود وتدغدغها فتعزف على قلبك وتذيبه بسحرها الحنون. ينسجم القلب مع المداعبات ويلهو عما سواها، فيترك نفسه للموسيقى تنتقل به بين المقامات كما شاءت. ستلحظ بطرف عينك أن هناك من يرمقونك، ربما يعجبون من الرجل الذي يتراقص الذي هو أنت، ربما يتأملون اندماجك التام، ربما... عندما تجد عيونا كثيرة تسترق النظر، ستلتفت في حيرة ولن تدري ماذا تفعل. ستنظر أمامك وستجد طفلين ينظران إليك: أحدهما يشير إليك ويهمس في أذن صديقه ببعض الكلمات، ربما: "أترى الرجل يرقص!!" أو "انظر إلى هذا الممسوس!" أو ساعتها لن تدع تفسيراتك تختلط بأحاسيسك وستبتسم لهما، لكنهما سيبعدان أعينهما عنك ويجريان بعيدا إلى رجل وامرأة، ربما كانا أبويهما. ستحاول أن تجلس على كرسيك صامتا جامدا كأنك جزء من أحجار القلعة الجالسة بجوارك... لكن الأنغام ستندهك بقوة ورقة لن

تستطيع مقاومتها. عندئذ ستجد نفسك تسحب الكرسي وتنسحب إلى الخلف لتجلس في مكان شبه مظلم تحت شجرة في ركن و...

## لوحة

تجلس عارية الأكتاف. لا تتجاوز الخامسة عشر بأي حال. تنظر نظرة مستيقظة لتوها من نوم لذيذ إلى الفرقة الموسيقية التي تتشنج أمامها. شعرها يهفهف في الهواء. ولولا أنها تربطه لتطاير وغطى مسرح المحكى بأكمله. رمانتان صغيرتان تترجرجان خلف فستانها الرقيق، وكأنهما ينتفضان من رعب ضجيج الآلات (الموسيقية). تتثاءب، فمها جد صغير واستدارته تبعث إحساسا بالسعادة والرضا، كما أن ملامحها النائمة لا تترك داخلك أي شعور معاكس. تتثاءب ثانية. يبدو أنها مثلك لا تستوعب هذه الألحان الأوبرالية، فتضع إصبعها على حافة أسنانها البيضاء الناصعة وتنغمس في تفكير يطول... إلى أن تنتهي الحفلة بأكملها، لكنها لا تتكلم أو تملأ المكان ضجيجا وصخبا مثلهن خلفك...

## تصفيق

عازفات الفلوت الأربع يتوسطن خشبة المسرح التي أعدت خصيصا. المسرح مرفوع قليلا لأعلى عن مستوى الأرض. لا يوجد فاصل بيننا وبين العازفات. تتخلق النغمات في تصاعد جميل يشد القلوب إلى أن يصل إلى قمة نهر النغم. اقترابنا من خشبة المسرح يخلق قدرا من الحميمية لا يستوعبه إلا جو القلعة التاريخي العطر. لا يسعك كرسيك. تهم أن

تتطاير على النسمات الوديعة التي تطلقها الألحان الحنونة. عندما تصل إلى أعلى قمة، ستسمع أحدهم بجانبك: "يبدو أنهم يعملون لهن اختبار رُكَب قبلما يدخلون الفرقة...انظر إلى أرجلهن، شيء خرافي!!!" لـــن تعـــره انتباها، ربما تنظر إليه بتقزز وتواصل تحليقك. ستشم النغمات تكبر وتكبر إلى أن تتزوج الجدران الرقيقة للقلعة. وعندما تنتشي النغمات وتبـــدأ في الإمساك بأذنيك بقوة، ستجد عامل القلعة يصفق قبل أن تنتهي الوصـــلة لكي يحث العازفات على الانتهاء. تنظر إليه إحداهن، فيشير إلى ساعته. ستنظر إلى ساعتك، متبقي ربع ساعة علـــى موعـــد انتـــهاء العـــرض. يلححححححححححح العامل إلى أن تحس العازفات بالخجل، فينحنين في تواضع وينصرفن حاملات آلاتهن وقدر من الكدر...

# عَنِ المؤلف

## جمال محمد عبد الرؤوف محمد ( جمال الجزيرى )

**تاريخ الميلاد:** ٢ أغسطس ١٩٧٣

**العمل:** دكتور أدب إنجليزي بكلية التربية بالسويس وكلية الآداب بالمدينة المنورة، جامعة طيبة.

**العنوان:** قسم اللغة الإنجليزية. كلية المعلمين. ص. ب. ١٣٤٣، جامعة طيبة، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

**رقم الهاتف:**

٠٩٦٦٥٣٢١٠١٥٤٤ (السعودية) ٠١٢١٠٩٤١٧١ (مصر)

Email elgezeery@yahoo.com ، elgezeery@gmail.com

**جوائز**

- المركز الأول في القصة القصيرة من جامعة جنوب الوادي ١٩٩٥
- المركز الثالث في القصة القصيرة، المسابقة المركزية لهيئة قصور الثقافة ١٩٩٦ – ١٩٩٧ عن مجموعة بعنوان " أساطير "
- المركز الثالث في النقد الأدبي، المسابقة المركزية لهيئة قصور الثقافة ١٩٩٩ – ٢٠٠٠، عن دراسة بعنوان الرؤية الحضارية للإبداع عند شكري عياد".
- جائزة ناجي نعمان الأدبية لعام ٢٠٠٩ (جوائز الإبداع) عن ديوان شعر بعنوان وطن بطعم الأسئلة.

**قائمة بالمؤلفات المطبوعة: (أ) في مجال الترجمة**

١- أسطورة بروميثوس في الأدبين الإنجليزي والفرنسي ، تأليف د. لويس عوض ، ترجمة د. جمال الجزيري بالمشاركة، مراجعة د. فاطمة موسى محمود، ٢٠٠١ ، جزءان .المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة.

٢- أقدم لك .. الذهن والمخ . تأليف: أنجوس جيلاتلي وأوسكار زاراتي، ترجمة: د. جمال الجزيري، مراجعة د. إمام عبدج الفتاح إمام، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة ٢٠٠١.
٣- سحر مصر للرحالة الإنجليز، تأليف: د. رشاد رشدي، ترجمة: د. جمال الجزيري، مراجعة د. فاطمة موسى محمود، القاهرة:
المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٢.
٤- أقدم لك... فرويد، تأليف: رتشارد أبجنانسي وأوسكار زاراتي، ترجمة: د. جمال الجزيري، مراجعة د. إمام عبد الفتاح إمام، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٣
٥- أقدم لك...تروتسكي والماركسية، تأليف: طارق علي وفيل إيفانز، ترجمة: د. جمال الجزيري، مراجعة د. إمام عبد الفتاح إمام، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٣
٦- أقدم لك...فرانتس كافكا، تأليف: ديفيد زين مايروفيتس وروبرت كرمب، ترجمة: د. جمال الجزيري، مراجعة د. إمام عبد الفتاح إمام، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٣
٧- أقدم لك...رولان بارت، تأليف: فيليب ثودي وآن كورس، ترجمة: د. جمال الجزيري، مراجعة د. إمام عبد الفتاح إمام، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٣
٨- أقدم لك ... علم العلامات، تأليف بول كوبلي وليتسا جانسز، ترجمة د. جمال الجزيري، مراجعة د. إمام عبد الفتاح إمام، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٥
٩- اليهودية أيديولوجية قاتلة، تأليف إسرائيل شاهاك، مراجعة د. إمام عبد الفتاح إمام، ترجمة د. جمال الجزيري، القاهرة، الإعلامية للطباعة والنشر، ٢٠٠٣

١٠- أقدم لك...الحركة النسوية، تأليف: سوزان أليس واتكنز وماريزا رويدا ومارتا رودريجز، ترجمة: د. جمال الجزيري، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٥

١١- أقدم لك...ما بعد الحركة النسوية، تأليف: صوفيا فوكا وريبيكا رايت، ترجمة: د. جمال الجزيري، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٥

١٢- أقدم لك النظرية النقدية، تأليف تشارلز سِم وبورين فان لوون، ترجمة: د. جمال الجزيري، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٥

١٣- أقدم لك ... القتل الجماعي، تأليف حائيم برشيت وستيوارت هوود وليتسا جانز، ترجمة: د. جمال الجزيري، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٥

١٥- أقدم لك ... التحليل النفسي، تأليف إيفان وارد وأوسكار زاراتي، ترجمة د. جمال الجزيري، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٦

١٦- المجلد الثامن من موسوعة كمبريدج للنقد الأدبي، ترجمة د. جمال الجزيري (بالمشاركة)، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٦.

١٧- الجزء الأول من المجلد الرابع من موسوعة كمبريدج للنقد الأدبي، ترجمة د. جمال الجزيري (بالمشاركة). المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٦.

١٨- مقالة مترجمة بعنوان "تنمية المواهب في التعليم" نشرت بمجلة المعرفة السعودية في عدد يوليو ٢٠٠٦. ص ٩٤-٩٧.

١٩- مقالة مترجمة بعنوان "العنوان: مكانه وزمانه، مرسله ومستقبله". تأليف جيرار جينيت. مجلة تواصل. الهيئة العامة لقصور الثقافة، فرع ثقافة القاهرة. عدد فبراير ١٩٩٩. ص ٣٦-٤٥.

١٩- مقالة مترجمة بعنوان "وظائف العنوان". تأليف جيرار جينيت. مجلة تواصل. الهيئة العامة لقصور الثقافة، فرع ثقافة القاهرة. عدد يونيو ١٩٩٩. ص ٣٩-٥٠.

٢٠- معجم دراسات الترجمة. المركز القومي للترجمة. المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٩.

## (ب ) مراجعة ترجمة

١- وجه أمريكا الأسود...وجه أمريكا الجميل،مختارات شعرية، تأليف نخبة من الشعراء، ترجمة أحمد شافعي، مراجعة: د. جمال الجزيري، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٥.

٢- فندق الأرق،شعر، تأليف تشارلز سيميك،ترجمة أحمد شافعي،مراجعة: د. جمال الجزيري، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٤.

٣- السيد، رواية، تأليف ثريا أنطونيوس، ترجمة محمود حسب النبي ود. جمال الجزيري، مراجعة: د. جمال الجزيري، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٦.

## ( ج) قصص قصيرة

فتافيت الصورة , ثقافة القاهرة ، ٢٠٠١بدايات قلقة، قصص، سلسلة الكتاب الأول، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤.

## روافد النقوش

# إصدارات دار التلاقي للكتاب

في شعر الفصحى :
**آية جيم** ، حسن طلب
**غريب على العائلة** ، عبد المنعم رمضان
**ممر البستان** ، أحمد طه
**الروح تعزف الموسيقى** ، وليد منير
**قصائد الغرقى** ، محمود قرني
**أصلح لحياة أخرى** ، غادة نبيل
**فتاة تجرب حتفها** ، سهير المصادفة
**متى يأتي الجيش العربي؟** ، السمّاح عبد الله
**نهر بضفة واحدة** ، فواز قادري
**حان قطاف التفاحات** ، جيهان بركات
**تأطير الهذيان** ، مؤمن سمير
**شتاءة للعاشق الوحيد** ، السمّاح عبد الله
**تجذبه إلى آخر الكون** ، عبد الله راغب
**مكابدات سيد المتعبين** ، السمّاح عبد الله
**سيرة أخشاب تتهيأ للملكوت** ، محمد توفيق عبد الحميد
**الواحدون**، السمّاح عبد الله
**لا تنتظر أحدا يا سيد القصيد** ، جمال الجزيري
**أحوال الحاكي** ، السمّاح عبد الله

في شعر العامية المصرية :
**إيقاع حرف** ، أسرار الجراح
**لمجرد الفرجة** ، للشاعر وليد طلعت

في الرواية :
**مثل ساحرة** ، صفاء عبد المنعم
**يا طير يا طاير**، معتز عباس
**امرأة** ، عماد ميشيل
**متاهة الغربان** ، أحمد محمد حميدة

في المقالات :
**الرسم بالطباشير** ، فاطمة ناعوت
**حدث العام القادم** ، تامر عدنان شاكر

في الدراسات :
**أدب الأطفال بين الشعرية والتقنيات الرقمية**،أحمد فضل شبلول

في المسرح :
**أغنية إلى النهار** ، السمّاح عبد الله
**السيد تمام**،نجاح عبد النور

في القصة القصيرة :
**نقوش على صفحة النهر** ، جمال الجزيري